الفصل التاسع

غزوة أُحد

المبحث الأول

أحداث ما قبل المعركة

أولاً: أسباب الغزوة:

كانت أسباب غزوة أُحد متعددة منها: الديني، والاجتماعي، والاقتصادي والسياسي.

١ ـ السبب الديني:

فقد أخبر المولى ﷻ أن المشركين ينفقون أموالهم في الصد عن سبيل الله، وإقامة العقبات أمام الدعوة الإسلامية، ومنع الناس في الدخول في الإسلام والسعي للقضاء على الإسلام، والمسلمين ودولتهم الناشئة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

قال الطبري: يصرفون أموالهم وينفقونها، ليمنعوا الناس عن الدخول في الإسلام [١].

وقال ابن كثير: أخبر تعالى أن الكفار ينفقون أموالهم ليصدوا عن اتباع الحق [٢].

وقال الشوكاني: والمعنى أن غرض هؤلاء الكفار في إنفاق أموالهم هو الصد عن سبيل الحق بمحاربة رسول الله ﷺ وجمع الجيوش لذلك [٣].

من هذا يظهر أن أهم أسباب غزوة أحد هو السبب الديني الذي كان من أهداف قريش للصد عن سبيل الله، واتباع طريق الحق، ومنع الناس من الدخول في الإسلام، ومحاربة الرسول ﷺ، والقضاء على الدعوة الإسلامية [٤].

---

(١) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية، محمد بامذحج، (ص ٧١).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤١)، ط/ دار السلام.

(٣) انظر: فتح القدير (٣٠٩).

(٤) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية، (ص ٧١).

٢ ـ السبب الاجتماعي:

كان للهزيمة الكبيرة في بدر، وقتل السادة الأشراف من قريش وقع كبير من الخزي والعار الذي لحق بهم، وجعلهم يشعرون بالمذلة والهزيمة، ولذلك بذلوا قصارى جهدهم في غسل هذه الذلة والمهانة التي لصقت بهم، ولذلك شرعوا في جمع المال لحرب رسول الله ﷺ فور عودتهم من بدر، قال ابن إسحاق: (لما أصيب يوم بدر من كفار قريش أصحاب القليب، ورجع فلُّهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بعيرهم فأوقفها بدار الندوة وكذلك كانوا يصنعون، فلم يحركها ولا فرقها، فطابت أنفس أشرافهم أن يجهزوا منها جيشاً لقتال رسول الله ﷺ، فمشى عبد الله بن ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، والحارث بن هشام، وحويطب بن عبد العزى، وصفوان بن أمية في رجال ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم، وإخوانهم يوم بدر، فكلموا أبا سفيان ومن كانت له في تلك العير تجارة من قريش، فقالوا: إن محمداً قد وتركم، وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا فقال أبو سفيان: أنا أول من أجاب إلى ذلك [١].

ودعا جبير بن مطعم غلاماً له حبشياً يقال له: وحشي، يقذف بحربة له قذف الحبشة قلما يخطىء لها فقال: اخرج مع الناس فإن أنت قتلت حمزة عم محمد بعمي طعيمة بن عدي، فأنت عتيق [٢].

٣ ـ السبب الاقتصادي:

كانت حركة السرايا التي تقوم بها الدولة الإسلامية قد أثرت على اقتصاد قريش وفرضت عليهم حصاراً اقتصادياً قوياً، وكان الاقتصاد المكي قائماً على رحلتي الشتاء والصيف؛ رحلة الشتاء إلى اليمن وتحمل إليها بضائع الشام ومحاصيلها، ورحلة الصيف إلى الشام تحمل إليها محاصيل اليمن وبضائعها، وقطع أحد جناحي هاتين الرحلتين ضر للجناح الآخر، لأن تجارتهم إلى الشام قائمة على سلع الشام [٣] قال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾ [سورة قُرَيش] .

ويشير إلى هذا قول صفوان بن أمية: (إن محمداً وأصحابه قد عوزوا علينا متاجرنا، فما ندري كيف نتصنع بأصحابه، وهم لا يبرحون الساحل، قد وادعهم [٤]، ودخل عامتهم معه فما

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/٦٨).

(٢) المصدر نفسه، (ص ٣/٧٩).

(٣) انظر: غزوة أُحد دراسة دعوية، (ص ٧٤).

(٤) وادعهم: أي صالحهم وسالمهم.

ندري أين نسلك؟ وإن أقمنا نأكل رؤوس أموالنا ونحن في ديارنا هذه مالنا بها بقاء، وإنما نزلناها على التجارة إلى الشام في الصيف وفي الشتاء إلى الحبشة) [١].

٤ ـ السبب السياسي:

فقد أخذت سيادة قريش في الانهيار بعد غزوة بدر وتزعزع مركزها بين القبائل بوصفها زعيمة لها، فلا بدّ من رد الاعتبار والحفاظ على زعامتها مهما كلفها الأمر من جهود ومال وضحايا.

هذه أهم الأسباب التي جعلت قريش تبادر إلى المواجهة العسكرية ضد الدولة الإسلامية بالمدينة [٢].

ثانياً: خروج قريش من مكة إلى المدينة:

استكملت قريش قواها في يوم السبت لسبع خلون من شوال من السنة الثالثة من الهجرة [٣]، وعبأت جيشها المكوّن من ثلاثة آلاف مقاتل مصحبين معهم النساء والعبيد، ومن تبعها من القبائل العربية المجاورة، فخرجت قريش بحدها وحديدها وأحابيشها [٤] ومن تبعها من كنانة وأهل تهامة، وخرجوا بالظعن [٥]، التماس الحفيظة، لئلا يفروا.

فخرج أبو سفيان وهو قائد الناس بهند ابنة عتبة بن ربيعة [٦]، وخرج صفوان بن أمية بن خلف ببرزة ابنة مسعود الثقفية، وخرج عكرمة بن أبي جهل بأم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة، وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة [٧]. . فأقبلوا حتى نزلوا ببطن السبخة من قناة على شفير الوادي مما يلي المدينة [٨].

كانت التعبئة القرشية قد سبقتها حملة إعلامية ضخمة تولى كبرها، أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحي، وعمرو بن العاص، وهبيرة المخزومي، وابن الزبعري، وقد حققت نتائج كبيرة [٩]، وبلغت النفقات الحربية لجيش قريش خمسين ألف دينار ذهباً [١٠].

---

(١) انظر: المغازي للواقدي (١/ ١٩٥، ١٩٦).
(٢) انظر: غزوة أحد دراسة دعوية، (ص ٧٥).
(٣) البداية والنهاية ٤/ ١١، الواقدي: المغازي (١/ ١٩٩).
(٤) الأحابيش: من اجتمع إلى العرب وانضم إليهم.
(٥) الظعن: النساء، واحدتها ظعينة والظعينة المرأة في الهودج.
(٦) انظر: الإصابة ٨/ ٣٤٦، رقم ١١٨٦٠.
(٧) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٧٠).
(٨) انظر: غزوة أُحد دراسة دعوية، (ص ٦٨.
(٩) انظر: غزوة أُحد لأبي فارس، (ص ١٧).
(١٠) المصدر نفسه، (ص ١٦).

ثالثاً: الاستخبارات النبوية تتابع حركة العدو:

كان العباس بن عبد المطلب يرقب حركات قريش واستعداداتها العسكرية، فلما تحرك هذا الجيش بعث العباس رسالة عاجلة إلى النبي ﷺ، ضمنها جميع تفاصيل الجيش، وأسرع رسول العباس بإبلاغ الرسالة، وجدَّ في السير حتى إنه قطع الطريق بين مكة والمدينة ـ التي تبلغ مساحتها خمسمائة كيلومتر ـ في ثلاثة أيام وسلم الرسالة إلى النبي ﷺ وهو في مسجد قباء [١].

كان النبي ﷺ يتابع أخبار قريش بدقة بواسطة عمه العباس، قال ابن عبد البر: (وكان ـ رضي الله عنه ـ يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله ﷺ، وكان المسلمون يثقون به بمكة، وكان يحب أن يقدم على رسول الله، فكتب إليه رسول الله ﷺ أن مقامك في مكة خير) [٢].

كانت المعلومات التي قدّمها العباس لرسول الله ﷺ دقيقة فقد جاء في رسالته: (إن قريشاً قد أجمعت المسير إليك، فما كنت صانعاً إذا حلوا بك فاصنعه، وقد توجهوا إليك وهم ثلاثة آلاف وقادوا مائتي فرس وفيهم سبعمائة دارع وثلاثة آلاف بعير وأوعبوا [٣] من السلاح) [٤].

وقد احتوت هذه الرسالة على أمور مهمة منها:

١ ـ معلومات مؤكدة عن تحرك قوات المشركين نحو المدينة.

٢ ـ حجم الجيش وقدراته القتالية، وهذا يعين على وضع خطة تواجه هذه القوات الزاحفة.

لم يكتف النبي ﷺ بمعلومات المخابرات المكية، بل حرص على أن تكون معلوماته على هذا العدو متجددة مع تلاحق الزمن، وفي هذا إرشاد لقادة المسلمين بأهمية متابعة الأخبار التي يتولد عنها وضع خطط واستراتيجيات نافعة، ولذلك أرسل ﷺ الحباب بن المنذر بن الجموح إلى قريش يستطلع الخبر، فدخل بين جيش مكة وحزر عَدَده وعُدَده ورجع، فسأله رسول الله ﷺ: «ما رأيت؟» قال: رأيت يا رسول الله عدداً، حزرتهم ثلاثة آلاف يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً، والخيل مائتي فرس، ورأيت دروعاً ظاهرة حزرتها سبعمائة درع، قال: «هل رأيت ظعناً؟» قال: رأيت النساء معهن الدفاف والأكبار [٥]... فقال رسول الله ﷺ: «أردن أن يحرضن القوم ويذكرنهم قتلى بدر، هكذا جاءني خبرهم لا تذكر من شأنهم حرفاً، حسبنا الله ونعم الوكيل، اللهم بك أجول وبك أصول» [٦].

---

(١) انظر: الرحيق المختوم، للمباركفوري (ص ٢٥٠).

(٢) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب (٢/ ٨١٢).

(٣) أوعبوا: خرجوا بجميع ما عندهم من السلاح.

(٤) انظر: المغازي للواقدي (١/ ٢٠٤).

(٥) الأكبار: جمع كَبَر، والكَبر هو: الطبل الذي له وجه واحد وهو فارس معرب.

(٦) انظر: مغازي الواقدي (١/ ٢٠٧، ٢٠٨).

كما أرسل ﷺ أنساً ومؤنساً ابني فضالة يتنصتان أخبار قريش، فألفياها قد قاربت المدينة، وأرسلت خيلها وإبلها ترعى زروع يثرب المحيطة بها، وعادا فأخبراه بخبر القوم [١].

وبعد أن تأكد من المعلومات حرص ﷺ على حصر تلك المعلومات على المستوى القيادي. خوفاً من أن يؤثر هذا الخبر على معنويات المسلمين قبل إعداد العدة، ولذلك حين قرأ أُبي بن كعب رسالة العباس أمره ﷺ بكتمان الأمر وعاد مسرعاً إلى المدينة، وتبادل الرأي مع قادة المهاجرين والأنصار في كيفية مواجهة الموقف، وكان ﷺ قد أطلع سيد الأنصار سعد بن الربيع على خبر رسالة العباس فقال: والله إني لأرجو أن يكون خيراً، فاستكتمه إياه؛ فلما خرج رسول الله ﷺ من عند سعد، قالت له امرأته: ما قال لك رسول الله؟ فقال لها: لا أم لك، أنت وذاك، فقالت: قد سمعت ما قال لك، فأخبرته بما أسرّ به الرسول ﷺ فاسترجع سعد. وقال: يا رسول الله، إن خفت أن أني يفشو الخبر فترى أني أنا المفشي له وقد استكتمتني إياه، فقال رسول الله ﷺ: «خلِّ عنها» [٢].

وفي هذه الحادثة درس بالغ للعسكريين وتحذيرهم من إطلاع زوجاتهم على أسرارهم العسكرية وخططهم وأوامرهم، ويبغي الحذر من إفشاء مثل هذه الأسرار، لأن إفشاءها يهدد الأمة ومستقبلها بكارثة كبرى.

إن تاريخ الأمم والشعوب في القديم والحديث يحدثنا أن كثيراً من الهزائم والمآسي والآلام قد حلّت بكثير من الأمم نتيجة لتسرب أسرار الجيوش إلى أعدائها عن طريق زوجة خائنة، أو خائن في ثوب صديق، أو قريب في الظاهر، عدو في الحقيقة والواقع [٣].

رابعاً: مشاورته ﷺ لأصحابه:

بعد أن جمع ﷺ المعلومات الكاملة عن جيش كفار قريش جمع أصحابه - ﷺ - وشاورهم في البقاء في المدينة والتحصن فيها أو الخروج لملاقاة المشركين، وكان رأي النبي ﷺ البقاء في المدينة، وقال: «إنا في جُنة حصينة» [٤]، فإن رأيتم أن تقيموا وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن دخلوا علينا قاتلناهم فيها. وكان رأي عبد الله بن أبي بن سلول [٥] مع رأي رسول الله ﷺ إلا أن رجالاً من المسلمين ممن فاتهم بدر قالوا: يا رسول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا.

قال ابن كثير: (وأبى كثير من الناس إلا الخروج إلى العدو ولم يتناهوا إلى قول

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٨٧).
(٢) انظر: السيرة الحلبية (٢/ ٤٨٩).
(٣) انظر: غزوة أُحد لأبي فارس، (ص ٢٢).
(٤) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٦٠).
(٥) انظر: غزوة أُحد دراسة دعوية، (ص ٨٢).

رسول الله ﷺ ورأيه، ولو رضُوا بالذي أمرهم كان ذلك، ولكن غلب القضاء والقدر، وعامة من أشار عليه بالخروج رجال لم يشهدوا بدراً، وقد علموا الذي سبق لأهل بدر من الفضيلة) [١].

وقال ابن إسحاق: فلم يزل الناس برسول الله ﷺ الذي كان من أمرهم حب لقاء القوم. حتى دخل رسول الله ﷺ بيته، فلبس لأمته [٢]، فتلاوم القوم فقالوا: عرض نبي الله ﷺ بأمر وعرضتم بغيره، فاذهب يا حمزة، فقل لنبي الله ﷺ: أمرُنا لأمرك تبع، فأتى حمزة فقال له: (يا نبي الله، إن القوم تلاوموا، فقالوا: أمرنا لأمرك تبع، فقال رسول الله ﷺ: «إنه ليس لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل» [٣].

كان رأي من يرى الخروج إلى خارج المدينة مبنياً على أمور منها:

١ ـ إن الأنصار قد عاهدوا في بيعة العقبة الثانية على نصرة الرسول ﷺ، فكان أغلبهم يرى أن المكوث داخل المدينة، تقاعس عن الوفاء بهذا العهد.

٢ ـ إن الأقلية من المهاجرين كانت ترى أنها أحق من الأنصار في الدفاع عن المدينة، ومهاجمة قريش وصدّها عن زروع الأنصار.

٣ ـ إن الذين فاتتهم غزوة بدر، كانوا يتحرقون شوقاً من أجل ملاقاة الأعداء، طمعاً في حصول الشهادة في سبيل الله.

٤ ـ إن الأكثرين كانوا يرون أن في محاصرة قريش للمدينة ظفراً يجب ألا تحلم به، كما توقعوا أن وقت الحصار سيطول أمده، فيصبح المسلمون مهددين بقطع المؤن عنهم [٤].

أما وجهة نظر من يرى البقاء في المدينة فهو مبني على التخطيط الحربي الآتي:

١ ـ إن جيش مكة لم يكن موحد العناصر وبذلك يستحيل على هذا الجيش البقاء زمناً طويلاً، إذ لا بدّ من ظهور الخلاف بينهم إن عاجلاً أو آجلاً.

٢ ـ أن مهاجمة المدن المصمّمة على الدفاع عن حياضها وقلاعا وبيضتها أمر بعيد المنال، وخصوصاً إذا تشابه السلاح عند كلا الجيشين، وقد كان يوم أحد متشابهاً.

٣ ـ إن المدافعين إذا كانوا بين أهليهم فإنهم يستبسلون في الدفاع عن أبنائهم وحماية نسائهم وبناتهم وأعراضهم.

٤ ـ مشاركة النساء والأبناء في القتال وبذلك يتضاعف عدد المقاتلين.

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٤).

(٢) لأمة الحرب: عدتها.

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٧١).

(٤) انظر: غزوة أُحد لأحمد عز الدين (ص ٥١، ٥٢).

٥ ـ استخدام المدافعين أسلحة لها أثر في صفوف الأعداء مثل الأحجار وغيرها وتكون إصابة المهاجمين في متناولهم [١].

من الواضح أن الرسول ﷺ ربَّى أصحابه على التصريح بآرائهم عند مشاورته لهم، حتى ولو خالفت رأيه، فهو إنما يشاورهم فيما لا نص فيه، تعويداً لهم على التفكير في الأمور العامة، ومعالجة مشاكل الأمة، فلا فائدة من المشورة إذا لم تقترن بحرية إبداء الرأي، ولم يحدث أن لام الرسول ﷺ أحداً لأنه أخطأ في اجتهاده ولم يوفق في رأيه، وكذلك فإن الأخذ بالشورى ملزم للإمام، فلا بدّ أن يطبق الرسول التوجيه القرآني: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٩] لتعتاد الأمة على ممارسة الشورى، وهنا يظهر الوعي السياسي عند الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ فرغم أن لهم إبداء الرأي إلا أنه ليس لهم فرضه على القائد، فحسبهم أن يبينوا رأيهم ويتركوا للقائد حرية اختيار ما يترجح لديه من الآراء، فلما رأوا أنهم ألحوا في الخروج وأن الرسول ﷺ عزم على الخروج بسبب إلحاحهم عادوا فاعتذروا إليه، لكن الرسول الكريم علمهم درساً آخر هو من صفات القيادة الناجحة وهو عدم التردد بعد العزيمة والشروع في التنفيذ، فإن ذلك يزعزع الثقة بها ويغرس الفوضى بين الأتباع [٢].

كان النبي ﷺ قد عزم على الخروج وقد أعلن حالة الطوارىء العامة، وتجهز الجميع للقتال، وأمضوا ليلتهم في حذر، كل يصحب سلاحه ولا يفارقه حتى عند نومه، وأمر ﷺ بحراسة المدينة، واختار خمسين من أشداء المسلمين ومحاربيهم بقيادة محمد بن مسلمة، واهتم الصحابة بحراسة رسول الله ﷺ، فبات سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وسعد بن عبادة في عدة من الصحابة ـ ﷺ أجمعين ـ ليلة الجمعة مدججين بالسلاح في باب المسجد يحرسون رسول الله ﷺ [٣].

خامساً: خروج جيش المسلمين إلى أُحد:

أ ـ من الأسباب المهمة التي اتخذها ﷺ لملاقاة أعدائه، اختياره لوقت التحرك والطريق التي تناسب خطته، فقد تحرك بعد منتصف الليل، حيث يكون الجو هادئاً والحركة قليلة وفي هذا الوقت بالذات يكون الأعداء غالباً في نوم عميق، لأن الإعياء ومشقة السفر قد أخذا منهم مجهوداً كبيراً.

---

(١) انظر: القيادة العسكرية للرشيد (ص ٣٧٤).

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٨٠).

(٣) انظر: غزوة أُحد لأبي فارس (ص ٣٤، ٣٥).

ومن المعروف أنه من نام بعد تعب يكون ثقيل النوم، فلا يشعر بالأصوات العالية، والحركة الثقيلة.

قال الواقدي رحمه الله: ونام رسول الله ﷺ حتى أدلج، فلما كان في السحر قال: «أين الأدلاء؟» [١] ثم إنه ﷺ اختار الطريق المناسب الذي يسلكه حتى يصل إلى أرض المعركة، وذكر صفة ينبغي أن تتوافر في هذا الطريق وهو السرية، حتى لا يرى الأعداء جيش المسلمين، فقال ﷺ لأصحابه: «من رجلٌ يخرج على القوم من طريق لا يمر بنا عليهم؟» فأبدى أبو خيثمة - رضي الله عنه - استعداده قائلاً: أنا يا رسول الله، فنفذ به في حرة بني حارثة وبين أموالهم، حتى سلك به في مال لمربع بن قيظي، وكان رجلاً منافقاً ضرير البصر، فلما أحس برسول الله ومن معه من المسلمين، قام يحثي في وجوههم التراب، وهو يقول: إن كنت رسول الله فلا أحل لك أن تدخل حائطي، وقد ذكر أنه أخذ حفنة من تراب بيده، ثم قال: والله لو أعلم أني لا أصيب بها غيرك يا محمد، لضربت بها وجهك، فابتدره القوم ليقتلوه، فقال لهم: لا تقتلوه فهذا الأعمى أعمى القلب، أعمى البصر، وقد بدر إليه سعد بن زيد أخو بني الأشهل [٢] قبل نهي رسول الله عنه، فضربه بالقوس في رأسه فشجه [٣].

ولا شك في أن مروره ﷺ بين الأشجار والبساتين يدلنا على حرصه ﷺ على الأخذ بالاحتياطات الأمنية المناسبة في أثناء السير، لأن الطرق تكشف للأعداء عن مقدار قوات المسلمين، وهذا أمر محذور، فالرسول ﷺ علّم الأمة الأخذ بالسرية من حيث المكان، ومن حيث الزمان، لئلا يستطيع الأعداء معرفة قواتهم فيضعوا الخطط المناسبة لمجابهتها، وبذلك يذهب تنظيم القادة وإعدادهم لجيوشهم في مهب الرياح.

وفي هذا الخبر تطبيق عملي لتقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة إذا تعارضت المصلحتان، فالرسول ﷺ حينما أمر بالجيش في أرض المنافق مربع بن قيظي، وترتب على ذلك إفساد المزرعة لكن فيه مصلحة للجيش باختصار الطريق لهم إلى أحد، فبين ﷺ أن ما يكون به مصلحة للدين مقدم على ما سواه من المصالح الأخرى، فهنا تعارضت مصلحتان، مصلحة عامة، ومصلحة خاصة، ومصلحة الدين في هذا الموقف مصلحة عامة، وهي مقدمة على المصلحة الخاصة، وهي مصلحة المال [٤] وقد رتّب الشارع الحكيم مقاصد الشرع في تحقيق المنافع لعباده من حفظ دينهم ونفوسهم وعقولهم ونسلهم وأموالهم، طبق ترتيب معين فيما بينها [٥]، فإذا نظرنا إلى كليات الدين الخمس وأهميتها، وجدنا أن هذه الكليات متدرجة حسب الأهمية: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال، فما يكون به حفظ الدين مقدم

---

(١) انظر: المغازي للواقدي (١/ ٢١٧).
(٢) بنو الأشهل: حي من الأنصار.
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٧٣).
(٤) انظر: غزوة أُحد دراسة دعوية (ص ١٦٨).
(٥) انظر: ضوابط المصلحة، محمد رمضان البوطي (ص ٢٣).

على ما يكون به حفظ النفس عند تعارضهما، وما يكون به حفظ النفس مقدم على ما به يكون حفظ العقل، وما يكون به حفظ النسل مقدم على ما به حفظ المال، والترتيب بهذا الشكل من هذه الكليات يحظى باتفاق العلماء [١].

ب ـ انسحاب المنافق ابن سلول بثلث الجيش:

عندما وصل جيش المسلمين الشواط [٢]، انسحب المنافق ابن سلول بثلاثمائة من المنافقين، بحجة أنه لن يقع قتال مع المشركين، ومعترضاً على قرار القتال خارج المدينة، قائلاً: (أطاع الولدان ومن لا رأي له، أطاعهم وعصاني، علام نقتل أنفسنا) [٣] وكان هدفه الرئيسي من هذا التمرد أن يُحدث بلبلة واضطراباً في الجيش الإسلامي، لتنهار معنوياته، ويتشجع العدو، وتعلو همته، وعمله هذا ينطوي على خيانة عظمى وبغض للإسلام والمسلمين، وقد اقتضت حكمة الله أن يمحص الله الجيش ليظهر الخبيث من الطيب حتى لا يختلط المخلص بالمغرض، والمؤمن بالمنافق [٤]، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عِمرَان: ١٧٩].

فالجبن والنكوص هما اللذان كشفا عن طوية النافقين فافتضحوا أمام أنفسهم وأمام الناس قبل أن يفضحهم القرآن [٥].

جـ ـ موقف عبد الله بن عمرو بن حرام من انخذال المنافقين:

حاول عبد الله بن حرام ـ رضي الله عنه ـ إقناع المنافقين بالعودة فأبوا، فقال: يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم؛ فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكنا لا نرى أن يكون قتال، فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم قال: أبعدكم الله، أعداء الله، فسيغني الله عنكم نبيه [٦]. وفي هؤلاء المنخذلين نزل قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٦٦ ـ ١٦٧].

د ـ بنو سلمة، وبنو حارثة:

ولما رجع ابن أُبي ابن سلول وأصحابه همت بنو سلمة وبنو حارثة أن ترجعا، ولكن الله

---

(١) انظر: المقاصد العامة للشريعة، يوسف حامد العالم (ص ١٦٦).

(٢) الشواط: اسم حائط ـ أي بستان ـ بين المدينة وأحد.

(٣) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٤).

(٤) انظر: غزوة أُحد دراسة دعوية (ص ٨٤).

(٥) انظر: مرويات غزوة أحد، حسين أحمد (ص ٧١).

(٦) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٢٧٧).

ثبتهما وعصمهما. قال جابر بن عبد الله نزلت هذه الآية فينا: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ [آل عِمرَان: ١٢٢] بني سلمة، وبني حارثة، وما أحب أنها لم تنزل والله يقول: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [آل عِمرَان: ١٢٢] (١).

لقد أثر موقف المنافقين في نفوس طائفتين من المسلمين ففكروا بالعودة إلى المدينة، ولكنهم غالبوا الضعف الذي ألم بهم، وانتصروا على أنفسهم بعد أن تولاهم الله تعالى فدفع عنهم الوهن، فثبتوا مع المؤمنين.

وقد ظهر رأيان في أوساط الصحابة تجاه موقف ابن سلول، **فالأول**: يرى قتل المنافقين الذين خذلوا المسلمين بعودتهم وانشقاقهم عن الجيش.

والثاني: لا يرى قتلهم، وقد بيّن القرآن الكريم موقف الفريقين (٢) في الآية: ﴿۞ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النِّساء: ٨٨].

هـ ـ الاستعانة بغير المسلمين:

عندما وصل رسول الله ﷺ إلى مكان يدعى الشيخين رأى كتيبة لها صوت وجلبة فقال: «ما هذه؟» فقالوا: هؤلاء حلفاء عبد الله بن أُبي ابن سلول من يهود فقال ﷺ: «لا نستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك» (٣)، وهذا أصل وضعه النبي ﷺ في عدم الركون إلى أعداء الإسلام في الاستنصار بهم (٤).

و ـ رد النبي ﷺ بعض الصحابة لصغر سنهم:

ردّ النبي ﷺ في معسكره بالشيخين جماعة من الفتيان لصغر أعمارهم، إذ كانوا في سن الرابعة عشرة أو دون ذلك منهم عبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، وأسامة بن زيد، وزيد بن أرقم، والبراء بن عازب، وأبو سعيد الخدري، بلغ عددهم أربعة عشر صبياً، وقد ثبت أن ابن عمر كان منهم (٥)، وأجاز منهم رافع بن خديج لما قيل له: إنه رام، فبلغ ذلك سُمرة بن جندب، فذهب إلى زوج أمه مرّى بن سنان بن ثعلبة، عم أبي سعيد الخدري وهو الذي ربّى سمرة في حجره ـ يبكي ويقول له: يا أبت، أجاز رسول الله ﷺ رافعاً وردّني، وأنا أصرع رافعاً، فرجع زوج أمه هذا إلى النبي ﷺ فالتفت النبي ﷺ إلى رافع وسُمرة فقال لهما:

---

(١) البخاري في المغازي: باب «إذ همت طائفتان» (رقم ٤٠٥١).

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٣/ ٣٨٢).

(٣) انظر: صحيح السيرة النبوية (ص ٢٧٨).

(٤) انظر: محمد رسول الله، محمد عرجون (٣/ ٥٦١).

(٥) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٨٣).

«تصارعا»، فصرع سُمرة رافعاً، فأجازه كما أجاز رافعاً، وجعلهما من جنده وعسكر كتائبه، ولكل منهما مجاله واختصاصه [١].

ونلحظ أن رسول الله ﷺ أجاز رافعاً وسُمرة لامتياز عسكري امتازا به على أقرانهما، وردّ صغار السن خشية أن لا يكون لهم صبر على ضرب السيوف، ورمي السهام، وطعن الرماح، فيفروا من المعركة إذا حمي الوطيس، فيحدث فرارهم خلخلة في صفوف المسلمين [٢].

ونلحظ أن المجتمع الإسلامي يضج بالحركة ويسعى للشهادة شيباً، وشباباً حتى الصبيان يقبلون على الموت ببسالة ورغبة في الشهادة، تبعث على الدهشة، دون أن يجبرهم قانون التجنيد أو تدفع بهم قيادة إلى ميدان القتال، وهذا يدل على أثر المنهج النبوي الكريم، في تربية شرائح الأمة المتعددة على حب الآخرة والترفع عن أمور الدنيا.

سادساً: خطة الرسول ﷺ لمواجهة كفار مكة:

أ ـ وضع الرسول ﷺ خطة محكمة لمواجهة المشركين من قريش، حيث اختار الموقع المناسب، وانتخب من يصلح للقتال، ورد من لم يكن صالحاً، واختار خمسين منهم للرماية وشدد الوصية عليهم، وقام بتقسيم الجيش إلى ثلاث كتائب، وأعطى اللواء لأحد أفراد الكتيبة، وهذه الكتائب هي:

١ ـ كتيبة المهاجرين، وأعطى لواءها مصعب بن عمير رضي الله عنه .

٢ ـ كتيبة الأوس من الأنصار، وأعطى لواءها أُسيد بن حضير رضي الله عنه .

٣ ـ كتيبة الخزرج من الأنصار، وأعطى لواءها الحُباب بن المنذر رضي الله عنه [٣].

ب ـ وكان ﷺ من هديه أن يُحرّض أصحابه على قتال الأعداء، ويحثهم على التحلي بالصبر في ميادين القتال، لكي تقوى روحهم المعنوية، ويصمدوا عند ملاقاة أعدائهم، ومن ذلك ما فعله يوم أُحد، وفي ذلك يقول الواقدي: (ثم قام رسول الله ﷺ فخطب الناس: يا أيها الناس أوصيكم بما أوصاني الله في كتابه، من العمل بطاعته، والتناهي عن محارمه، ثم إنكم اليوم بمنزل أجر وذُخر؛ لمن ذكر الذي عليه ثم وطّن نفسه له على الصبر واليقين، والجد والنشاط، فإن جهاد العدو شديد كريه، قليل من يصبر عليه، إلا من عزم الله رشده، فإن الله مع من أطاعه، وإن الشيطان مع من عصاه، فافتتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد والتمسوا بذلك ما وعدكم الله، وعليكم بالذي آمركم فإني حريص على رشدكم، فإن الاختلاف والتنازع والتثبيط من أمر العجز، والضعف مما لا يحب الله، ولا يُعطى عليه النصر ولا الظفر) [٤].

---

(١) انظر: محمد رسول الله (٣/ ٥٧١).

(٢) المصدر نفسه، (٣/ ٥٧٢).

(٣) انظر: غزوة أُحد دراسة دعوية (ص ٨٩).

(٤) انظر: مغازي الواقدي (١/ ٢٢١، ٢٢٢).

ويتضح من هذه الخطبة عدة أهداف منها:

١ ـ الحث على الجد والنشاط في ميدان الجهاد.

٢ ـ الحث على الصبر عند قتال الأعداء.

٣ ـ بيان مساوىء الاختلاف والتنازع [(١)].

إن هذا الهدي المبارك الذي سنّه ﷺ يعلمنا حقائق ثابتة، وهي أن الجيوش مهما عظم تسليحها وتنظيمها فإن ذلك لا يغني شيء إلا إذا حملته نفوس قوية تحرص على الموت أشد من حرصها على الحياة، وهذا يكون بتعبئة الجنود بالموعظة والتوجيه وغرس حب الجهاد والشهادة في نفوسهم.

جـ ـ أدرك الرسول ﷺ أهمية جبل أحد لحماية جيش المسلمين، فعندما وصل جيش المسلمين إلى جبل أُحد، جعل الرسول ﷺ ظهورهم إلى الجبل، ووجوههم إلى المدينة، وانتقى خمسين من الرماة تحت إمرة عبد الله بن جبير [(٢)]، ووضعهم فوق جبل عيْنَين المقابل لجبل أُحد، وذلك يمنع التفاف جيش المشركين حول جيش المسلمين، وأصدر أوامره إليهم قائلاً: «لا تبرحوا، إنْ رأيتمونا ظهرنا عليهم، فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا، فلا تُعينونا» [(٣)].

وقال رسول الله ﷺ للجيش: «لا تبرحوا حتى أوذنكم»، وقال: «لا يقاتلن أحد حتى آمره بالقتال».

وقال لأمير الرماة: «انضح الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، وأثبت مكانك إن كانت لنا أو علينا». وقال للرماة: «الزموا مكانكم، لا تبرحوا منه، فإذا رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم، فلا تفارقوا مكانكم، وإن رأيتمونا نقتل، فلا تغيثونا، ولا تدفعوا عنا، وارشقوهم بالنبل، فإن الخيل لا تقدم على النبل، إنا لن نزال غالبين ما مكثتم مكانكم، اللهم إني أُشهدك عليهم» [(٤)].

سيطر المسلمون على المرتفعات وتركوا الوادي لجيش مكة ليواجه أُحداً وظهره إلى المدينة، وأصبحت مهمة الرماة في النقاط التالية: احتلال الموقع، حماية المسلمين من الخلف، صد الخيل عن المسلمين [(٥)].

---

(١) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ (ص ٤٦٩).

(٢) انظر: الإصابة (٢/ ٢٧٨).

(٣) انظر: البخاري في المغازي، باب «غزوة أُحد» رقم (٤٠٤٣).

(٤) انظر: السيرة الحلبية (٢/ ٤٩٦).

(٥) انظر: غزوة أُحد دراسة دعوية (ص ٩٠).

د ـ تسوية الصفوف، وتنظيم الجيش:

تقدم رسول الله ﷺ وأصحابه وصفّهم على هيئة صفوف الصلاة، وجعل رسول الله ﷺ يمشي على رجليه يُسوي تلك الصفوف، ويبوىء أصحابه للقتال يقول: «تقدم يا فلان، وتأخر يا فلان»، فهو يقوِّمهم... حتى استوت الصفوف [١]، فوضع ﷺ في مقدمة الصفوف الأشداء، لكي يفتحوا الطريق لمن خلفهم، وقد أخذ الرسول ﷺ بهذا الأسلوب لأنه أبلغ في قتال الأعداء [٢].

هـ ـ عدم القتال إلا بأمر من القائد:

قال الطبري: (فجعل ظهره وعسكره إلى أُحد، وقال: «لا يقاتلن أحد حتى نأمره بالقتال» [٣].

وفي هذا التوجيه فائدة مهمة وهي توحيد القيادة والمسؤولية لأنه ﷺ أدرى بالمصلحة.

المبحث الثاني

في قلب المعركة

أولاً: بدء القتال واشتداده وبوادر الانتصار للمسلمين:

في بداية القتال حاول أبو سفيان أن يوجد شرخاً وتصدعاً في جبهة المسلمين المتماسكة، فأرسل إلى الأنصار يقول: خلوا بيننا وبين ابن عمنا، فننصرف عنكم، فلا حاجة بنا إلى قتال فردوا عليه بما يكره [٤].

ولما فشلت المحاولة الأولى لجأت قريش إلى محاولة أخرى عن طريق عميلٍ خائن من أهل المدينة، وهو أبو عامر الراهب حيث حاول أبو عامر الراهب أن يستزل بعض الأنصار، فقال: يا معشر الأوس، أنا أبو عامر، قالوا: فلا أنعم الله بك عيناً يا فاسق، فلما سمع ردهم عليه قال: لقد أصاب قومي بعدي شر، ثم قاتلهم قتالاً شديداً، ورماهم بالحجارة [٥].

وبدأ القتال بمبارزة بين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وطلحة بن عثمان، حامل لواء المشركين يوم أُحد، يقول صاحب السيرة الحلبية: خرج طلحة بن عثمان وكان بيده لواء

---

(١) انظر: الواقدي، المغازي (١/ ٢١٩).
(٢) انظر: العبقرية العسكرية في غزوات الرسول، محمد فرج (ص ٣٥٥، ٣٥٦).
(٣) انظر: تاريخ الطبري (٢/ ٥٠٧).
(٤) انظر: إمتاع الأسماع للمقريزي (١/ ١٢٠).
(٥) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ١٩٢).

المشركين، وطلب المبارزة مراراً، فلم يخرج إليه أحد فقال: يا أصحاب محمد إنكم تزعمون أن الله تعالى يُعجلنا بسيوفكم إلى النار، ويعجلكم بسيوفنا إلى الجنة فهل أحد منكم يعجلني بسيفه إلى النار أو أعجله بسيفي إلى الجنة؟ فخرج إليه علي بن أبي طالب ـ ﷺ ـ فقال له علي ـ ﷺ : والذي نفسي بيده لا أفارقك حتى يعجلك الله بسيفي إلى النار أو يعجلني بسيفك إلى الجنة، فضربه عليٌّ فقطع رجله، فوقع على الأرض، فانكشفت عورته، فقال: يا ابن عمي أنشدك الله والرحم، فرجع عنه ولم يجهز عليه، فكبّر رسول الله وقال لعليٍّ بعض أصحابه: أفلا أجهزت عليه؟ قال: إن ابن عمي ناشدني الرحم حين انكشفت عورته فاستحييت منه [١].

والتحم الجيشان واشتد القتال، وشرع رسول الله ﷺ يشحذ في همم أصحابه، ويعمل على رفع معنوياتهم وأخذ سيفاً وقال: «من يأخذ مني هذا؟» فبسطوا أيديهم، كل إنسان منهم يقول: أنا، أنا، قال: «فمن يأخذه بحقه؟» قال: فأحجم القوم، فقال: سماك بن خَرَشَة أبو دُجَانة: أنا آخذه بحقه، قال: فأخذه ففلق به هام المشركين [٢]، وكان رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب ـ أي يمشي مشية المتكبّر ـ وحين رآه رسول الله ﷺ يتبختر بين الصفين قال: «إنها لمشيئة يبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن».

وهذا الزبير بن العوام يصف لنا ما فعله أبو دجانة يوم أحد قال: وجدت في نفسي حين سألت رسول الله ﷺ السيف فمنعنيه وأعطاه أبا دجانة وقلت: أنا ابن صفية عمته ومن قريش، وقد قمت إليه وسألته إياه قبله فأعطاه أبا دجانة وتركني، والله لأنظرن ما يصنع فاتبعته فأخرج عصابة حمراء فعصب بها رأسه فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت، وهكذا كانت تقول له إذا تعصب فخرج وهو يقول:

أنا الذي عاهدني خليلي ... ونحن بالسفح لدى النخيل
أنْ لا أقوم الدهر في الكيول؟ [٣] ... أضرب بسيف الله والرسول [٤]

فجعل لا يلقى أحداً إلا قتله، وكان في المشركين رجل لا يدع جريحاً إلا ذفف [٥] عليه، فجعل كل منهما يدنو من صاحبه فدعوت الله أن يجمع بينهما فالتقيا، فاختلفا ضربتين فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته فعضت بسيفه وضربه أبو دجانة فقتله، ثم رأيته قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة ثم عدل السيف عنها فقلت: الله ورسوله أعلم [٦]، قال ابن

(١) انظر: السيرة الحلبية (٢/ ٤٩٧، ٤٩٨) تفسير الطبري (٧/ ٢١٨).
(٢) مسلم: كتاب فضائل الصحابة، رقم (٢٤٧٠).
(٣) الكيول: مؤخرة الصفوف.
(٤) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٧).
(٥) ذفف: أجهز عليه.
(٦) انظر: البداية والنهاية (٤/ ١٨).

إسحاق: قال أبو دجانة: رأيت إنساناً يحمس الناس حماساً شديداً فصمدت له فلما حملت عليه السيف ولول فإذا امرأة فأكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة [١].

ثانياً: مخالفة الرماة لأمر الرسول ﷺ:

استبسل المسلمون في مقاتلة المشركين وكان شعارهم: أمت، أمت، واستماتوا في قتال بطولي ملحمي سجّل فيه أبطال الإسلام صوراً رائعةً في البطولة والشجاعة [٢]، وسجّل التاريخ راوئع بطولات حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، وأبو دجانة، وأبو طلحة الأنصاري، وسعد بن أبي وقاص، وأمثالهم كثير [٣]، وحقق المسلمون الانتصار في الجولة الأولى من المعركة [٤]، وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

ولما رأى الرماة الهزيمة التي حلت بقريش وأحلافها، ورأوا الغنائم في أرض المعركة جذبهم ذلك إلى ترك مواقعهم ظناً منهم أن المعركة انتهت، فقالوا لأميرهم عبد الله بن جبير: الغنيمة أي قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: والله لتأتين الناس، فلنصيبن من الغنيمة [٥] ثم انطلقوا يجمعون الغنائم ولم يعبأوا بقول أميرهم، ووصف ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ حالة الرماة في ذلك الموقف، فقال: (فلما غنم النبي ﷺ وأباحوا عسكر المشركين، أكب الرماة جميعاً فدخلوا في المعسكر ينهبون، وقد التقت صفوف أصحاب رسول الله ﷺ فهم هكذا ـ وشبك بين أصابع يديه ـ والتبسوا، فلما أخل الرماة تلك الخلّة التي كانوا فيها، دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب النبي ﷺ فضرب بعضهم بعضاً، والتبسوا، وقتل من المسلمين ناس كثير) [٦].

ورأى خالد بن الوليد ـ وكان على خيالة المشركين ـ الفرصة سانحة ليقوم بالالتفاف حول المسلمين، ولما رأى المشركون ذلك عادوا إلى القتال من جديد وأحاطوا بالمسلمين من جهتين، وفقد المسلمون مواقعهم الأولى، وأخذوا يقاتلون بدون تخطيط، فأصبحوا يقاتلون متفرقين، فلا نظام يجمعهم ولا وحدة تشملهم، بل لم يعودوا يميزون بعضهم، فقد قتلوا اليمان ـ والد

---

(١) المصدر السابق نفسه، (٤/١٨).
(٢) انظر: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (١/٣٠٣).
(٣) المصدر نفسه، (١/٣٠٣).
(٤) المصدر نفسه، (١/٣٠٣).
(٥) البخاري: كتاب الجهاد، رقم (٣٠٣٩).
(٦) مسند أحمد (١/٢٨٧)، رقم (٢٦٠٨).

حذيفة بن اليمان ـ خطأ، وأخذ المسلمون يتساقطون شهداء في الميدان، وفقدوا اتصالهم بالرسول ﷺ وشاع أنه قتل [١]، واختلط الحابل بالنابل واشتدت حرارة القتال، وصار المشركون يقتلون كل من يلقونه من المسلمين، واستطاعوا الخلوص قريباً من النبي ﷺ فرموه بحجر كسر أنفه الشريف ورباعيته [٢]، وشجّه [٣] في وجهه الكريم فأثقله وتفجر الدم [٤] منه ﷺ، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ كسرت رباعيته يوم أُحد، وشج في رأسه، فجعل يسلت الدم عنه، ويقول: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم، وكسروا رباعيته، وهو يدعوهم إلى الله؟» فأنزل الله ﷻ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٨].

وحمل ابن قمئة على مصعب بن عمير ـ رضي الله عنه ـ حيث كان شديد الشبه برسول الله ﷺ فقتله، فقال لقريش: قد قتلت محمداً [٥]، وشاع أن محمداً قد قُتل فتفرّق المسلمون، ودخل بعضهم المدينة، وانطلقت طائفة منهم فوق الجبل، واختلطت على الصحابة أحوالهم، فما يدرون كيف يفعلون من هول الفاجعة [٦]، ففرّ جمع من المسلمين من ميدان المعركة، وجلس بعضهم إلى جانب ميدان المعركة بدون قتال، وآثر آخرون الشهادة بعد أن ظنوا أن رسول الله ﷺ قد مات، ومن هؤلاء أنس بن النضر الذي كان يأسف لعدم شهوده بدراً والذي قال في ذلك: (والله لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله ﷺ ليرين الله كيف أصنع) وقد صدق في وعده، مرّ يوم أُحد على قوم ممن أذهلتهم الشائعة وألقوا بسلاحهم فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قُتل رسول الله، فقال: يا قوم إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يُقتل، وموتوا على ما مات عليه. وقال: اللهم إني أعتذر إليك مما قال هؤلاء ـ يعني المسلمين ـ وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ـ يعني المشركين ـ ثم لقي سعد بن معاذ فقال: يا سعد إني لأجد ريح الجنة دون أحد، ثم ألقى بنفسه في أتون المعركة، وما زال يقاتل حتى استشهد، فوجد فيه بضع وثمانون ما بين ضربة بسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، فلم تعرفه إلا أخته ببنانه [٧]، وفي هذا وأمثاله نزل قول الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

أما أولئك النفر الذين فرّوا لا يلوون على شيء رغم دعوة النبي ﷺ لهم بالصمود والثبات

---

(١) انظر: غزوة أُحد دراسة دعوية، (ص ٩٨).
(٢) الرباعية: إحدى الأسنان الأربع التي تكون بين الثنية والناب.
(٣) الشج: كسر في الرأس.
(٤) انظر: فقه السيرة للغزالي، (ص ٢٩٤).
(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٨١).
(٦) انظر: غزوة أُحد دراسة دعوية، (ص ١٠٠).
(٧) انظر: غزوة أُحد دراسة دعوية، (ص ١٠١).

فقد نزل فيهم قوله تعالى: ﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَابَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٣] .

ولقد حكى القرآن الكريم خبر فرار هذه المجموعة من الصحابة الذين ترخصوا في الفرار بعد سماعهم نبأ مقتل النبي ﷺ الذي شاع في ساحة المعركة، وكان أول من علم بنجاة الرسول ﷺ وأنه حي هو الصحابي كعب بن مالك الذي رفع صوته بالبشرى فأمره النبي ﷺ بالسكوت حتى لا يفطن المشركون إلى ذلك [١]. وقد نصّ القرآن الكريم على أن الله تعالى قد عفا عن تلك الفئة التي فرت، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٥] .

ثالثاً: خطة الرسول ﷺ في إعادة شتات الجيش:

عندما ابتدأ الهجوم المعاكس من المشركين خلف المسلمين والهدف الرئيسي فيه شخص النبي ﷺ، لم يتزحزح عليه الصلاة والسلام من موقفه والصحابة يسقطون واحداً تلو الواحد بين يديه، وحوصر رسول الله ﷺ في قلب المشركين، وليس معه إلا تسعة من أصحابه سبعة منهم من الأنصار، وكان الهدف أن يفك هذا الحصار وأن يصعد في الجبل ليمضي إلى جيشه، واستبسل الأنصار في الدفاع عن رسول الله ﷺ واستشهدوا واحداً بعد الآخر [٢]، فعن قيس بن أبي حازم قال: رأيت يد طلحة التي وقى بها النبي ﷺ قد شلّت [٣]، وأراد النبي ﷺ إلى صخرة فلم يستطع، فقعد طلحة تحته حتى استوى على الصخرة، قال الزبير: فسمعت النبي ﷺ يقول: «أوجب طلحة» [٤]، وقاتل سعد بن أبي وقاص بين يدي رسول الله ﷺ وكان يناوله النبال ويقول: «إرم ياسعد فداك أبي وأمي» [٥]، كما قاتل بين يديه أبو طلحة الأنصاري الذي كان من أمهر الرماة، وهو الذي قال عنه النبي ﷺ: «لصوت أبي طلحة في الجيش أشد على المشركين من فئة» [٦]، وقد كان متترساً على رسول الله بحجفة، وكان رامياً شديد النزع [٧]، كسر يومئذٍ قوسين أو ثلاثة، وكان الرجل يمر معه الجعبة [٨] من النبل، فيقول رسول الله ﷺ: «انثرها لأبي طلحة» ثم يشرف إلى القوم فيقول أبو طلحة: يا نبي الله بأبي أنت، لا تشرف

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمي (٦/ ١١٢).
(٢) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٠٤).
(٣) البخاري: رقم (٣٧٢٤).
(٤) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٩٦).
(٥) المصدر نفسه، (ص ٢٩٥).
(٦) المسند والفتح الرباني (٢٢/ ٥٨٩) بإسناده رجاله ثقات.
(٧) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٩٦).
(٨) الجعبة: الكنانة التي تجعل فيها السهام.

إلى القوم [١] ألا يصيبك سهم، نحري دون نحرك [٢] [٣].

ووقفت نسيبة بنت كعب تذب عن رسول الله ﷺ بالسيف وترمي بالقوس، وأصيبت بجراح كبيرة، وترس أبو دجانة دون رسول الله ﷺ بنفسه يقع النبل في ظهره وهم مُنْحَنٍ عليه حتى كثر فيه النبل [٤].

والتف حول الرسول ﷺ في تلك اللحظات العصيبة أبو بكر وأبو عبيدة، وقام أبو عبيدة ينزع السهمين من وجه النبي ﷺ بأسنانه، ثم توارد مجموعة من الأبطال المسلمين، حيث بلغوا قرابة الثلاثين يذودون عن رسول الله ﷺ منهم قتادة، وثابت بن الدحداح، وسهل بن حنيف، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام.

واستطاع عمر بن الخطاب أن يرد هجوماً مضاداً قاده خالد ضد المسلمين من عالية الجبل، واستبسل الصحابة الذين كانوا مع عمر في رد الهجوم العنيف، وعاد المسلمون فسيطروا على الموقف من جديد [٥]، ويئس المشركون من إنهاء المعركة بنصر حاسم، وتعبوا من طولها ومن جلادة المسلمين، وانسحب النبي ﷺ بمن معه ومن لحق به من أصحابه إلى أحد شعاب جبل أُحد، وكان المسلمون في حالة من الألم والخوف والغم لما أصاب رسول الله ﷺ وما أصابهم رغم نجاحهم في رد المشركين [٦]، فأنزل الله عليهم النعاس فناموا يسيراً ثم أفاقوا آمنين مطمئنين، قال تعالى:

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٤].

وقد أجمع المفسرون على أن الطائفة التي قد أهمتهم أنفسهم هم المنافقون [٧]. أما قريش فإنها يئست من تحقيق نصر حاسم وأجهد رجالها من طول المعركة، ومن صمود المسلمين

---

(١) لا تشرف: لا تتطلع.
(٢) نحري دون نحرك: جعل الله نحري أقرب إلى السهام من نحرك لأصاب بها دونك.
(٣) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٩٦).
(٤) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٥، ٣٦).
(٥) انظر: السيرة النبوية لمنير الغضبان، (ص ٤٦٨ ـ ٤٧٠).
(٦) انظر: نضرة النعيم (١/ ٣٠٥).
(٧) المصدر نفسه، (١/ ٣٠٥).

وجلَدَهم، خاصة بعد أن اطمأنوا وأنزل الله عليهم الأمنة والصمود فالتفوا حول النبي ﷺ، ولذلك كفوا عن مطاردة المسلمين وعن محاولة اختراق قواتهم [١].

رابعاً: من شهداء أُحد:

أ ـ حمزة بن عبد المطلب ـ رضي الله عنه ـ سيد الشهداء عند الله تعالى يوم القيامة:

قاتل أسد الله حمزة قتالاً ضارياً، وأثخن في المشركين قتلاً، وأطاح برؤوس نفر من حملة لواء المشركين من بني عبد الدار، وبينما هو على هذه الحال من الشجاعة والإقدام كَمِنَ له وحشي حتى تمكن منه ثم رماه بحربته، فأصاب منه مقتلاً، ولندع وحشياً يخبرنا عن هذا المشهد المؤلم، قال وحشي: إن حمزة قتل طعيمة بن عدي بن الخيار ببدر، فقال لي مولاي جبير بن مُطْعم: إن قتلت حمزة بعمي فأنت حر، قال: فلما أن خرج الناس عام عَيْنَين ـ وعَيْنَين جبل بجبال أُحد ـ بينه وبين وادٍ ـ خرجت مع الناس إلى القتال، فلما أن اصطفوا للقتال، خرج سِبَاع، فقال: هل من مبارز؟ قال: فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فقال: يا سِبَاع، يا ابن أمِّ أَنْمَارٍ مقطِّعة البُظُور، أتحادُّ الله ورسوله ﷺ؟ قال: ثم شدّ عليه، فكان كأمس الذاهب. قال: وكمنتُ لحمزة تحت صخرة، فلما دنا مني رميته بحربتي، فأضعها في ثنته [٢] حتى خرجت من بين وركيه، قال: فكان ذاك العهد به [٣]، فلما رجع الناس رجعت معهم، فأقمت بمكة حتى فشا فيه الإسلام ثم خرجت إلى الطائف، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ رسولاً، فقيل لي: إنه لا يهيج الرُّسُل [٤]، قال: فخرجت، معهم حتى قدمت على رسول الله ﷺ، فلما رآني قال: «أنت وحشيٌّ؟» قلت: نعم، قال: «أنت قتلت حمزة؟» قلت: قد كان من الأمر ما بلغك، قال: «فهل تستطيع أن تُغيب وجهك عني؟» قال: فخرجت فلما قبض رسول الله ﷺ، فخرج مسيلمة الكذاب، قلت: لأخرجن إلى مسيلمة لعلي أقتله، فأكافيء به حمزة، قال: فخرجت مع الناس، فكان من أمره ما كان، قال: فإذا رجل قائم في ثلمة جدار، كأنه جمل أورق [٥]، ثائر الرأس، قال: فرميته بحربتي، فأضعها بين ثدييه حتى خرجت من بين كتفيه، قال: ووثب إليه رجل من الأنصار بالسيف على هامته، قال: قال عبد الله بن الفضل: فأخبرني سليمان بن يسار أنه سمع عبد الله بن عمر يقول: فقالت جارية على ظهر بيت: وا أمير المؤمنين، قتله العبد الأسود [٦].

---

(١) المصدر السابق نفسه، (١/ ٣٠٦).
(٢) فأضعها في ثنته: أي في عاتقه.
(٣) ذلك العهد به: كناية عن موته.
(٤) لا يهيج الرسل: أي لا ينالهم منه مكروه.
(٥) أورق: لونه كالرماد.
(٦) البخاري: المغازي رقم (٤٠٧٢).

١ ـ سؤال النبي ﷺ عن مقتل حمزة ـ رضي الله عنه ـ:

بعد انتهاء المعركة سأل رسول الله ﷺ أصحابه: «من رأى مقتل حمزة؟» فقال رجل: أنا رأيت مقتله، قال: «فانطلق أرناه» فخرج رسول الله ﷺ حتى وقف على حمزة فرآه وقد شُق بطنه، وقد مُثل به، فقال: يا رسول الله مُثل به والله [١]، وفي رواية (لما بلغ النبي ﷺ قتل حمزة بكى فلما نظر إليه شهق) [٢] ووقف بين ظهراني القتلى فقال: «أنا شهيد على هؤلاء كفنوهم في دمائهم، فإنه ليس جرح يجرح في الله إلا جاء يوم القيامة يدمى، لونه لون الدم، وريحه ريح المسك، قدموا أكثرهم قرآناً فاجعلوه في اللحد» [٣].

وباستشهاد حمزة وأصحاب رسول الله ﷺ في أُحد تحققت رؤيا رسول الله ﷺ، فقد أخبر أصحابه عن رؤياه قبل الخروج إلى أحد فقال: «رأيت في سيفي ذي الفَقَار فَلاً [٤]، فأولته فَلاً يكون فيكم (أي انهزاماً) ورأيت أني مردفٌ كَبْشاً فأولته كبش الكتيبة، ورأيت أني في درع حصينة، فأولتها المدينة، ورأيت بقراً تذبح، فبقرٌ والله خير، فبقر والله خير» فكان الذي قال رسول الله ﷺ [٥].

٢ ـ صبر صفية بنت عبد المطلب على شقيقها حمزة:

قال الزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ: إنه لما كان يوم أُحد أقبلت امرأة تسعى حتى كادت تشرف على القتلى، قال: فكره النبي ﷺ أن تراهم فقال: «المرأة المرأة». قال الزبير: فتوسمت أنها صفية قال: فخرجت أسعى إليها، قال: فأدركتها قبل أن تنتهي إلى القتلى، قال: فلدمت [٦] في صدري وكانت امرأة جلدة. قالت: إليك عني لا أرض لك، فقلت: إن رسول الله ﷺ عزم عليك.

قال: فوقفت وأخرجت ثوبين معها فقالت: هذان ثوبان جئت بهما لأخي حمزة فقد بلغني مقتله، فكفنوه فيهما. قال: فجئنا بالثوبين لنكفّن فيهما حمزة فإذا إلى جنبه رجل من الأنصار قتيل فعل به كما فعل بحمزة، قال: فوجدنا غضاضة وخنى أن يكفن حمزة في ثوبين والأنصاري لا كفن له، فقلنا: لحمزة ثوب وللأنصاري ثوب، فقدرناهما فكان أحدهما أكبر من الآخر فأقرعنا بينهما، فكفنا كل واحد منهما في الثوب الذي صار له [٧].

---

(١) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٨٣).
(٢) المصدر نفسه، (ص ٢٨٤).
(٣) المصدر نفسه، (ص ٢٨٣).
(٤) الفَلّ: الثلم في السيف.
(٥) انظر: المسند (١/ ٢٧١)، برقم (٢٤٤٥).
(٦) لدمت: ضربت ودفعت.
(٧) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٨٥).

٣ ـ من شعر صفية في بكاء حمزة:

أسائله أصحاب أُحد مخافةً ... بناتُ أبي من أعْجم [١] وخَيبر
فقال الخبير إن حمزة قد ثوى ... وزير رسول الله خير وزير
دعاه إله الحق ذو العرش دعوة ... إلى جنّة يحيا بها وسرور
فذلك ما كنّا نرجّي ونرْتجي ... لحمزة يوم الحشر خير مصير
فوالله لا أنساك ما هبت الصّبا ... بكاء وحزناً محضري ومسيري
على أسد الله الذي كان مدْرها [٢] ... يذود عن الإسلام كلّ كفور
فيا ليت شلْوي [٣] عند ذاك وأعظمي ... لدى أضبع تعتادني ونسور
أقول وقد أغلى النعي عشيرتي ... جزى الله خيراً من أخ ونصير [٤]

٤ ـ حمزة لا بواكي له:

لما رجع رسول الله ﷺ من أُحد سمع نساء الأنصار يبكين فقال: «لكن حمزة لا بواكي له» فبلغ ذلك نساء الأنصار فبكين حمزة، فنام رسول الله ﷺ ثم استيقظ وهن يبكين فقال: «يا ويحهن ما زلن يبكين منذ اليوم فليبكين، ولا يبكين على هالك بعد اليوم» [٥] وبذلك حرّمت النياحة على الميت.

٥ ـ رسول الله ﷺ يسمي غلاماً للأنصار بحمزة:

قال جابر بن عبد الله: ولد لرجل منا غلام، فقالوا: ما نسميه؟ فقال النبي ﷺ: «سمّوه بأحب الأسماء إليّ، حمزة بن عبد المطلب» [٦]، فحمزة متجذر في القلب النبوي، عالق بالذاكرة الكريمة.. ولكن الله سبحانه ينزل على نبيّه ﷺ فيما بعد أحب الأسماء إليه.. فيقولها ﷺ لمن حوله: «إن أحب أسمائكم إلى الله عبد الله وعبد الرحمن» [٧].

٦ ـ «هل تستطيع أن تغيب وجهك عني» [٨]:

فهذا التوجيه الكريم لا يوجد فيه شيء من المؤاخذة والتأثيم لوحشي، وإنما هو تذكير له

---

(١) انظر: السيرة لابن هشام (٣٣/ ١٨٥).
(٢) مدرها: الذي يدفع عن القوم.
(٣) الشّلو: البقية، تعتادني: تتعاهدني.
(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٨٥).
(٥) انظر: سنن ابن ماجة، محمد فؤاد عبد الباقي، كتاب الجنائز، باب «ما جاء في البكاء على الميت» ج ٢، برقم (١٥٩١) وصححه الألباني برقم (١٣٠٣٣).
(٦) رواه الحاكم (٣/ ١٩٦) سنده حسن.
(٧) مسلم، كتاب الأدب رقم (٢١٣٢).
(٨) البخاري: المغازي رقم (٤٠٧٢).

بأن رؤيته إياه تجلب له شيئاً من المتاعب النفسية، وتحرك في نفسه ذكريات حادث القتل وما تبعه من تمثيل شنيع بشع بعمه، فتثير عنده حزازات بشرية ربما لا يكون من المستطاع منعها ومقاومتها إلا بشيء من العسر والعنت الشديد، مما قد يشغل النبي ﷺ ويقلقه [١]، فأشار عليه ﷺ بأن يغيب وجهه حتى يفقد مصدر التذكير بتلك المصيبة [٢]، وفي رواية صحيحة قال وحشي: أتيت النبي ﷺ فقال لي: «وحشي» قلت: نعم. قال: «قتلت حمزة؟» قلت: نعم، الحمد للّه الذي أكرمه بيدي ولم يهني بيده، فقالت له قريش: أتحبه وهو قاتل حمزة؟ فقلت: يا رسول الله فاستغفر لي، فتفل رسول الله ﷺ في الأرض ثلاثة، ودفع في صدري ثلاثة وقال: «وحشي اخرج فقاتل في سبيل الله، كما قاتلت لتصد عن سبيل الله» [٣] فهذا من التوجيه الإرشادي النبوي إلى مكفِّرات ما سلف من الكفر ومحادة الله ورسوله، وذكر القتال في سبيل الله بيان للأمر الأنسب في التكفير، وفيه حضٌّ من النبي ﷺ لإعلاء راية الجهاد، ولعل مخرج وحشي إلى اليمامة وقتله مسيلمة الكذاب كان أثراً من آثار توجيه النبي ﷺ إلى أفضل ما يمحو الخطايا، ويحتُّ الذنوب، ويطهِّر الآثام.

وقد أدرك وحشي ذلك فقال حين قتل مسيلمة الكذاب: قتلت خير الناس يعني سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، وقتلت شر الناس مسيلمة الكذاب [٤].

ب ـ مصعب بن عمير ـ رضي الله عنه ـ:

قال خباب ـ رضي الله عنه ـ: هاجرنا مع رسول الله ﷺ ونحن نبتغي وجه الله، فوقع أجرنا على الله، فمنا من مضى في سبيله ولم يأكل من أجره شيئاً، منهم مصعب بن عمير قتل يوم أُحد، ولم يترك إلا نمرة، كنا إذا غطينا رأسه بدت رجلاه، وإذا غطينا رجليه بدا رأسه، فقال رسول الله ﷺ: «غطوا رأسه، واجعلوا على رجليه الأذخر» [٥]، ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها [٦]، ومن حديث عبد الرحمن بن عوف أنه أُتي بطعام وكان صائماً، فقال: قتل مصعب بن عمير، وكان خيراً مني، فلم يوجد له ما يُكفَّن فيه، إلا بردة. وقُتل حمزة أو رجل آخر خيرٌ مني، فلم يوجد له ما يُكفَّن فيه، إلا بردة، لقد خشيت أن يكون قد عجلت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا، ثم جعل يبكي [٧]، ومن حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: إن رسول الله ﷺ

---

(١) انظر: محمد رسول الله، عرجون (٣/ ٦٠٣).

(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٥/ ١٤١).

(٣) رواه الطبراني في الكبير، إسناده حسن (٢٢/ ١٣٩)، رقم (٣٧٠) نقلاً عن صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٨٦).

(٤) انظر: محمد رسول الله، عرجون (٣/ ٦٠٢).

(٥) الأذخر: نوع من العشب.

(٦) البخاري في الجنائز رقم (١٢٨٦).

(٧) البخاري في الجنائز رقم (١٢٧٤، ١٢٧٥).

حين انصرف من أحد مرّ على مصعب بن عمير وهو مقتول على طريقه، فوقف عليه، ودعا له، ثم قرأ هذه الآية: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣] ثم قال رسول الله ﷺ: «أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة، فأتوهم وزوروهم والذي نفسي بيده لا يسلّم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه» (١).

جـ ـ سعد بن الربيع ـ رضي الله عنه ـ:

هذا الذي استكتمه رسول الله ﷺ خبر مسير قريش وكان رسول الله ﷺ يحبه، فلما انتهت معركة أُحد قال رسول الله ﷺ: «من رجل ينظر ما فعل سعد بن الربيع أفي الأحياء هو أم في الأموات؟» لأن النبي ﷺ قد رأى الأسنة شرعت إليه، فقال أُبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ: أنا أنظره لك يا رسول الله، فقال له: «إن رأيت سعد بن الربيع فاقرأه مني السلام وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ: كيف يجدك؟» فنظر أُبي فوجده جريحاً به رمق.

فقال له: إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات، فقال: قد طعنت اثنتي عشرة طعنة وقد نفذت إلى مقاتلي (٢)، وفي رواية صحيحة قال: على رسول الله وعليك السلام، قل له: يا رسول الله أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم شفر (٣) يطرف، قال: وفاضت نفسه رحمه الله (٤)، وهذا نصح للّه ورسوله في سكرات الموت يدل على قوة الإيمان، والحرص على الوفاء بالبيعة لم يتأثر بالموت ولا آلام القروح.

د ـ عبد الله بن جحش ـ رضي الله عنه ـ:

قال سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ: إن عبد الله بن جحش قال له يوم أُحد: ألا تدعو الله فخلوا في ناحية فدعا سعد، فقال: يا رب إذا لقيت العدو، فلقّني رجلاً شديداً بأسه، شديداً حرده، أقاتله ويقاتلني، ثم ارزقني الظفر عليه حتى أقتله، وآخذ سلبه، فأمن عبد الله بن جحش، ثم قال: اللهم ارزقني رجلاً شديداً حرده، شديداً بأسه أقاتله فيك ويقاتلني ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غداً، قلت: من جدع أنفك وأذنك، فأقول: فيك وفي رسولك، فتقول: صدقت، قال سعد: يا بني كانت دعوة عبد الله بن جحش خيراً من دعوتي، لقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلقان في خيط (٥)، وفي هذا الخبر جواز دعاء الرجل أن يقتل في

(١) انظر: المستدرك (٣/ ٢٠٠) صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.
(٢) انظر: السيرة الحلبية (٢/ ٥٣٢).
(٣) شفر: العين.
(٤) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٩٤).
(٥) المصدر نفسه، (٢٩٣).

سبيل الله، وتمنيه ذلك وليس هذا من تمني الموت المنهي عنه [١].

هـ ـ حنظلة بن أبي عامر ـ رضي الله عنه ـ (غسيل الملائكة):

لما انكشف المشركون ضرب حنظلة فرس أبي سفيان بن حرب فوقع على الأرض، فصاح وحنظلة يريد ذبحه، فأدركه الأسود بن شداد، ويقال له ابن شعوب، فحمل على حنظلة بالرمح فأنفذه ومشى إليه حنظلة بالرمح وقد أثبته، ثم ضرب الثانية فقتله، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «إني رأيت الملائكة تغسِّله بين السماء والأرض بماء المزن، في صحاف الفضة»، فقال رسول الله ﷺ: «فسلوا أهله ما شأنه؟» فسألوا صاحبته عنه فقالت: خرج وهو جُنُب حين سمع الهاتفة [٢]، فقال رسول الله ﷺ: «فلذلك غسَّلته الملائكة» [٣].

وفي رواية الواقدي: وكان حنظلة بن أبي عامر تزوّج جميلة بنت عبد الله بن أُبي ابن سلول، فأدخلت عليه في الليلة التي في صبحها قتال أُحد، وكان قد استأذن رسول الله ﷺ أن يبيت عندها فأذن له، فلما صلَّى بالصبح غدا يريد رسول الله ﷺ ولزمته جميلة فعاد فكان معها، فأجنب منها ثم أراد الخروج، وقد أرسلت قبل ذلك إلى أربعة من قومها فأشهدتهم أنه قد دخل بها، فقيل لها بعْدُ: لم أشهدت عليه؟ قالت: رأيت كأن السماء فُرجت فدخل فيها حنظلة ثم أطبقت، فقلت: هذه الشهادة، فأشهدت عليه أنه قد دخل بها. وتَعلَّقَ بعبد الله بن حنظلة ثم تزوجها ثابت بن قيس بعد فولدت له محمد بن ثابت بن قيس [٤].

وفي هذا الخبر مواقف وعبر منها:

١ ـ في تعلق جميلة بنت عبد الله بن أبي بحنظلة بن أبي عامر حين رأت له تلك الرؤيا التي فسرتها بالشهادة، فالمظنون في مثل هذه الحال أن تحاول الابتعاد عنه حتى لا تحمل منه فتكون بعد ذلك غير حظيَّة لدى الخطاب، لكنها تعلّقت به رجاء أن تحمل منه فتلد ولداً ينسب لذلك الشهيد الذي بلغ درجات عليا في الصلاح أولاً ثم بما ترجوه من نيله الشهادة. ولقد حصل لها ما أملت به فحملت منه وولدت ولداً ذكراً سمِّي عبد الله، وكان له ذكر بعد ذلك، وكان من أعلى ما يفتخر به أن يقول: أنا ابن غسيل الملائكة.

٢ ـ في حرص حنظلة القوي على مقارعة أعداء الله الذي يتمثل في سرعة خروجه إلى الميدان، الأمر الذي لم يتمكن معه من غسل الجنابة.

٣ ـ شجاعته الفائقة تظهر في تصديه لقائد المشركين أبي سفيان بن حرب والقائد غالباً يكون حوله من يحميه، وهو فارس وحنظلة راجل.

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢١٢).

(٢) أي: سمع منادي رسول الله يدعو للخروج لملاقاة العدو.

(٣) انظر: صحيح السيرة النبوية، (ص ٢٨٩).

(٤) انظر: المغازي للواقدي (١/ ٢٧٣).

٤ - تشريف رباني كريم في نزول الملائكة لتغسيل حنظلة بمياه المزن في صحاف الفضة.

٥ - معجزة نبوية في إخبار الصحابة عما قامت به الملائكة من تغسيل، حيث رأى ﷺ الملائكة وهي تغسل ولم ير الصحابة ذلك [١].

٦ - إذا كان الشهيد جنباً غُسل كما غسلت الملائكة حنظلة بن أبي عامر [٢].

و - عبد الله بن عمرو بن حرام - رضي الله عنه -:

أصرّ عبد الله بن عمرو بن حرام على الخروج في غزوة أُحد، فخاطب ابنه جابر بقول: يا جابر... لا عليك أن تكون في نظاري المدينة حتى تعلم إلى ما يصير أمرنا، فإني والله لولا أني أترك بنات لي بعدي لأحببت أن تقتل بين يدي [٣].

وقال لابنه أيضاً: ما أراني إلا مقتولاً في أول من يقتل من أصحاب النبي ﷺ، وإني لا أترك بعدي أعز عليَّ منك غير نفس رسول الله ﷺ، فإن عليَّ ديناً فاقض واستوص بأخواتك خيراً [٤].

وخرج مع المسلمين ونال وسام الشهادة في سبيل الله، فقد قتل في معركة أحد، وهذا جابر يحدثنا عن ذلك حيث يقول: (لما قتل أبي يوم أُحد جعلت أكشف عن وجهه وأبكي، وجعل أصحاب رسول الله ﷺ ينهوني وهو لا ينهاني، وجعلت عمتي تبكيه، فقال النبي ﷺ: «تبكين أو لا تبكين، ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه» [٥].

وقال رسول الله ﷺ: «يا جابر ما لي أراك منكسراً؟» قال: يا رسول الله، استشهد أبي وترك عيالاً وديناً. قال ﷺ: «أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟» بلى يا رسول الله، قال ﷺ: «ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وكلَّم أباك كفاحاً» فقال: يا عبدي.. تمنَّ عليّ أُعطك، وقال: يا رب! تحييني فأُقتل فيك ثانية، فقال الرب تبارك وتعالى: إنه سبق مني أنهم إليها لا يرجعون، قال: يا رب.. فأبلغ من ورائي [٦]، قال فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٦٩] وقد رأى عبد الله بن عمرو رؤية في منامه قبل أُحد قال: رأيت في النوم قبل أُحد مبشِّر بن عبد المنذر يقول لي: أنت قادم علينا في أيام، فقلت: وأين أنت؟ فقال: في الجنة نسْرح فيها كيف نشاء. قلت له: ألم تقتل يوم بدر؟ قال:

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٥/ ١٢٩، ١٣٠).
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢١٤).
(٣) البخاري رقم (٤٠٩٧).
(٤) البخاري رقم (١٣٥١).
(٥) البخاري رقم (١٢٤٤).
(٦) صحيح ابن ماجه الألباني، رقم (١٥٨ - ١٨٩).

بلى ثم أحييتُ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «هذه الشهادة يا أبا جابر» [١]، وقد تحققت تلك الرؤيا بفضل الله ومنّه.

ز ـ خيثمة أبو سعد ـ رضي الله عنه ـ:

قال خيثمة أبو سعد، وكان ابنه استشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر: لقد أخطأتني وقعة بدر، وكنت والله عليها حريصاً حتى ساهمت ابني في الخروج، فخرج سهمه، فرزق الشهادة، وقد رأيت البارحة ابني في النوم في أحسن صورة يسرح في ثمار الجنة وأنهارها، ويقول: الحق بنا ترافقنا في الجنة، فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً، وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته في الجنة، وقد كبرت سنِّي، ورقَّ عظمي، وأحببت لقاء ربي، فادع الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة، ومرافقة سعد في الجنة. فدعا له رسول الله ﷺ بذلك فقتل بأحد شهيداً [٢].

ح ـ وهب المزني وابن أخيه ـ رضي الله عنهما ـ:

أقبل وهب بن قابوس المزني، ومعه ابن أخيه الحارث بن عقبة بن قابوس، بغنم لهما من جبل مُزينة، فوجدا المدينة خلواً فسألا: أين الناس؟ فقالوا: بأُحد، خرج رسول الله ﷺ يقاتل المشركين من قريش، فقالا: لا نبتغي أثراً بعد عين، فخرجا حتى أتيا النبي ﷺ بأحد فيجدان القوم يقتتلون والدولة لرسول الله ﷺ وأصحابه، فأغارا مع المسلمين في النهب، وجاءت الخيل من وراءهم، خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل، فاختلطوا فقاتلا أشد القتال، فانفرقت فرقة من المشركين فقال رسول الله ﷺ: «من لهذه الفرقة؟» فقال وهب بن قابوس: أنا يا رسول الله. فقام فرماهم بالنبل حتى انصرفوا ثم رجع.

فانفرقت فرقة أخرى فقال رسول الله ﷺ: «من لهذه الكتيبة؟» فقال المزني: أنا يا رسول الله. فقام فذبها بالسيف حتى ولَّوا ثم رجع المُزني. ثم طلعت كتيبة أخرى فقال: «من يقوم لهؤلاء؟» فقال المزني: أنا يا رسول الله. فقال: «قم وأبشر بالجنة»، فقام المزني مسروراً يقول: والله لا أقيل ولا أستقيل، فقام فجعل يدخل فيهم فيضرب بالسيف، ورسول الله ﷺ ينظر إلى المسلمين حتى خرج من أقصاهم ورسول الله ﷺ يقول: «اللهم ارحمه» ثم يرجع فيهم فما زال كذلك وهم مُحدقون به حتى اشتملت عليه أسيافهم ورماحهم فقتلوه، فوجد به يومئذٍ عشرون طعنة برمح، كلها قد خلصت إلى مقتل، ومثل به أقبح المُثلة يومئذٍ. ثم قام ابن أخيه فقاتل قتاله حتى قتل، فكان عمر بن الخطاب يقول: إن أحبَّ ميتة أموت لَمَا مات عليه المزني [٣].

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٠٩).
(٢) المصدر نفسه، (٣/ ٢٠٨).
(٣) انظر: المغازي للواقدي (١/ ٢٧٥).

وكان بلال بن الحارث المزني يُحدث يقول: شهدنا القادسية مع سعد بن أبي وقاص، فلما فتح الله علينا وقُسمت بيننا غنائمنا، فأسقط فتى من آل قابوس من مُزينة [1]، فجئت سعداً حين فرغ من نومه فقال: بلال؟ قلت: بلال! قال: مرحباً بك من هذا معك؟ قلت: رجل من قومي من آل قابوس، قال سعد: ما أنت يا فتى من المزني الذي قتل يوم أُحد؟ قال: ابن أخيه. قال سعد: مرحباً وأهلاً وانْعم الله بك عيناً، ذلك الرجل شهدتُ منه يوم أُحد مشهداً ما شهدته من أحد، لقد رأيتنا وقد أحدق المشركون بنا من كل ناحية، ورسول الله ﷺ وسطنا والكتائب تطلع من كل ناحية، وإن رسول الله ﷺ ليرمي ببصره في الناس يتوسمهم [1]، يقول: من لهذه الكتيبة، كل ذلك يقول المزني: أنا يا رسول الله! كل ذلك يرده، فما أنسى آخر مرة قامها فقال رسول الله ﷺ: «قم وأبشر بالجنة!» قال سعد: وقمت على أثره، يعلم الله أني أطلب مثلما يطلب يومئذٍ من الشهادة، فخضنا حومتهم حتى رجعنا فيهم الثانية، وأصابوه ح ووددت والله أني كنت أصبت يومئذٍ معه، ولكن أجلي استأخر ثم دعا سعد من ساعته بسهمه فأعطاه وفضله، وقال: اختر في المقام عندنا أو الرجوع إلى أهلك، فقال بلال: إنه يستحب الرجوع فرجعنا.

وقال سعد: أشهدُ لرأيت رسول الله ﷺ واقفاً عليه وهو مقتول، وهو يقول: «رضي الله عنك فإني عنك راض» ثم رأيت رسول الله ﷺ قام على قدميه وقد نال النبي ﷺ من الجراح ما ناله وإني لأعلم أن القيام ليشقُ عليه على قبره حتى وُضع في لحده، وعليه بردة لها أعلام خضر، فمدّ رسول الله ﷺ البُردة على رأسه فخمّره، وأدرجه فيها طولاً وبلغت نصف ساقيه، وأمرنا فجمعنا الحرْمل فجعلناه على رجليه وهو في لحده، ثم انصرف. فما حال أموتُ عليه أحبُّ إليَّ من أن ألقى الله تعالى على حال المُزني [1].

وهكذا يفعل الإيمان بأصحابه فهذا وهب المزني وابن أخيه تركوا الأغنام بالمدينة والتحقوا بصفوف المسلمين وحرصوا على نيل الشهادة، فأكرمهم الله بها، وقد كانت تلك الملحمة التي سطرها المزني محفورة في ذاكرة الصحابة، فهذا سعد بن أبي وقاص يتذكرها بعد مرور ثلاث عشرة سنة تقريباً على غزوة أُحد لمجرد سماع اسم رجل من عشيرة المزني، ويتمنى أن يموت ويلقى الله على مثل حالة المزني.

ط ـ عمرو بن الجموح ـ رضي الله عنه ـ:

كان عمرو بن الجموح ـ رضي الله عنه ـ أعرج شديد العرج، وكان له بنون أربعة مثل الأسد يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد، وهم خلاد ومعوَّذ ومُعاذ وأبو أيمن، فلما كان يوم أُحد أرادوا حبسه وقالوا: إن الله عز وجل قد عذرك، فأتى رسول الله ﷺ فقال: «إن بنيَّ يريدون أن

(١) انظر: المغازي للواقدي (١/ ٢٧٥).

يحبسوني عن هذا الوجه وللخروج معك فيه، فوالله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة، فقال له رسول الله ﷺ: «أما أنت فقد عذرك الله تعالى، فلا جهاد عليك» وقال لبنيه: ما عليكم ألا تمنعوه، لعل الله أن يرزقه الشهادة، فخرج وهو يقول مستقبل القبلة: اللهم لا تردني إلى أهلي خائباً، فقتل شهيداً.

وفي رواية أتى عمرو بن الجموح - رضي الله عنه - إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت إن قاتلت في سبيل الله حتى أقتل، أمشي برجلي هذه صحيحة في الجنة - وكانت رجله عرجاء - فقال رسول الله ﷺ: «نعم» فقتلوه يوم أُحد هو وابن أخيه ومولى لهم، فمر بهم رسول الله ﷺ فجعلوا في قبر واحد [١].

وفي هذا الخبر دليل على أن من عذره الله في التخلف عن الجهاد لمرض أو عرج، يجوز له الخروج إليه وإن لم يجب عليه، كما خرج عمرو بن الجموح وهو أعرج [٢].

وفيه دليل على شجاعة عمرو بن الجموح ورغبته في نيل الشهادة وصدقه في طلبها، وقد أكرمه الله بذلك.

ي - أبو حذيفة بن اليمان وثابت بن قيس - رضي الله عنهما -:

لما خرج رسول الله ﷺ إلى أُحد رفع حُسيل بن جابر، وهو اليمان أبو حذيفة بن اليمان وثابت بن وقش في الآطام [٣]، مع النساء والصبيان، فقال أحدهما لصاحبه وهما شيخان كبيران: لا أبا لك، ما تنتظر؟ فوالله ما بقي لواحد منا من عمره إلاّ ظمء [٤] حمار، إنما نحن هامة اليوم أو غد [٥]، أفلا نأخذ سيوفنا ثم نلحق برسول الله ﷺ، لعلّ الله يرزقنا شهادة مع رسول الله ﷺ؟

فأخذا أسيافهما ثم خرجا حتى دخلا في الناس ولم يعلم بهما، فأما ثابت بن وقش فقتله المشركون، وأما حسيل بن جابر فاختلفت عليه أسيافُ المسلمين فقتلوه ولا يعرفونه، فقال حذيفة: أبي، فقالوا: والله إن عرفناه، وصدقوا. قال حذيفة: يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، فأراد رسول الله ﷺ أن يديه، فتصدق حذيفة بديته على المسلمين فزاده ذلك عند رسول الله ﷺ [٦] خيراً، وفي هذا الخبر يظهر أثر الإيمان في نفوس الشيوخ الكبار الذين عذرهم

---

(١) انظر: المسند (٥/ ٢٩٩)، رقم (٢٢٥٥٣)، السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٠١).
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢١٨).
(٣) الآطام: الحصون.
(٤) ظمء حمار: أي مقدار ما بين شربتي حمار.
(٥) أي: نموت اليوم أو غداً.
(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٩٨).

الله في الجهاد وكيف تركوا الحصون وخرجوا إلى ساحات الوغى طلباً للشهادة وحباً وشوقاً للقاء الله تعالى، وفيه موقف عظيم لحذيفة حيث تصدق بدية والده على المسلمين، ودعا لهم بالمغفرة لكونهم قتلوا والده خطأ، وفيه أيضاً: أن المسلمين إذا قتلوا واحداً منهم في الجهاد يظنونه كافراً فعلى الإمام ديته من بيت المال، لأن رسول الله ﷺ أراد أن يدي اليمان أبا حذيفة، فامتنع من أخذ الدية، وتصدّق بها على المسلمين [١].

ك ـ الأمور بخواتيمها:

إن الأمور بخواتيمها، وقد وقع في غزوة أُحد ما يحقق هذه القاعدة المهمة في هذا الدين، فقد وقع حادثان يؤكدان هذا الأمر، وفيهما عظة وعبرة لكل مسلم متعظ ومعتبر [٢].

١ ـ شأن الأصيرم ـ رضي الله عنه ـ:

واسمه عمرو بن ثابت بن وقش، عرض عليه الإسلام فلم يسلم، وروى قصته أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أن الأصيرم كان يأبى الإسلام على قومه، فجاء ذات يوم ورسول الله ﷺ وأصحابه بأحد فقال: أين سعد بن معاذ؟ فقيل: بأُحد، فقال: أين بنو أخيه؟ قيل: بأُحد، فسأل عن قومه فقيل: بأُحد، فبدا له الإسلام فأسلم، وأخذ سيفه، ورمحه، وأخذ لأمته وركب فرسه فعدا حتى دخل في عُرض الناس، فلما رآه المسلمون قالوا: إليك عنا يا عمرو، قال إني قد آمنت. فقاتل حتى أثخنته الجراحة، فبينما رجال من بني عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم في المعركة إذا هم به، فقالوا: والله إن هذا للأصيرم، ما جاء به؟ لقد تركناه وإنه منكر لهذا الحديث، فسألوه: ما جاء بك؟ أحَدبٌ على قومك أم رغبة في الإسلام؟ فقال: بل رغبة في الإسلام، آمنت بالله تعالى ورسوله ﷺ وأسلمت ثم أخذت سيفي فغدوت مع رسول الله ﷺ ثم قاتلت حتى أصابني ما أصابني، وإن مت فأموالي إلى محمد يضعها حيث شاء، فذكروه لرسول الله ﷺ فقال: «إنه من أهل الجنة».

وقيل: مات فدخل الجنة وما صلى من صلاة، فقال النبي ﷺ: «عَمِل قليلاً، وأُجر كثيراً» [٣]، وكان أبو هريرة يقول: حدثوني عن رجل دخل الجنة ولم يُصَلِّ قط، فإذا لم يعرفه الناس سألوه: من هو؟ قال: هو أصيرم بن عبد الأشهل [٤].

٢ ـ شأن مخيريق:

لما كانت غزوة أُحد وخرج رسول الله ﷺ يقاتل المشركين جمع قومه اليهود وقال لهم: يا

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢١٨).
(٢) انظر: غزوة أحد لأبي فارس (ص ١١٧).
(٣) انظر: البخاري، الجهاد، رقم (٢٨٠٨).
(٤) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٠٠، ١٠١).

معشر يهود، والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لحق، قالوا: إن اليوم يوم السبت، قال: لا سبت لكم.

فأخذ سيفه وعدته، وقال: إن أُصبت فمالي لمحمد يصنع فيه ما شاء، ثم غدا إلى رسول الله ﷺ فقاتل معه حتى قتل، فقال رسول الله ﷺ: «مخيريق خير يهود» (١).

وقد اختلف في إسلامه، فنقل الذهبي في التجريد وابن حجر في الإصابة عن الواقدي (٢) أن مخيريق مات مسلماً، وذكر السهيلي في الروض الأنف أنه مسلم، وذلك حين قال معقباً على رواية ابن إسحاق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مخيريق خير يهود» قال: ومخيريق مسلم، ولا يجوز أن يقال في مسلم هو خير النصارى ولا خير اليهود لأن أفعل من كذا، إذا أضيف فهو بعض ما أضيف إليه، فإن قيل: وكيف جاز هذا؟ قلنا: لأنه قال: خير يهود، ولم يقل خير اليهود، ويهود اسم علم كثمود، يقال: إنهم نسبوا إلى يهوذا بن يعقوب ثم عربت الذال دالاً (٣)، وقد حقق هذه المسألة الدكتور عبدالله الشقاري في كتابه (اليهود في السنّة المطهرة) وذهب إلى أن مخيريق قد أسلم ودفعه ذلك إلى القتال مع المسلمين، وإلى التصدق بماله مع كثرته، ومع ما عرف عن اليهود من حب المال والتكالب عليه (٤).

ل ـ إنما الأعمال بالنيات:

كان ممن قاتل مع المسلمين يوم أُحد رجل يدعى قزمان، كان يعرف بالشجاعة، وكان رسول الله ﷺ يقول ـ إذا ذُكر له ـ: «إنه من أهل النار»، فتأخر يوم أُحد فعيَّرته نساء بني ظفر، فأتى رسول الله ﷺ وهو يسوي الصفوف حتى انتهى إلى الصف الأول، فكان أول من رمى من المسلمين بسهم، فجعل يرسل نبلاً كأنها الرماح ويكتُّ كتيت الجمل ثم فعل بالسيف الأفاعيل حتى قتل سبعة أو تسعة وأصابته جراحة، فوقع فناداه قتادة بن النعمان: يا أبا الغَيْداق هنيئاً لك الشهادة، وجعل رجال من المسلمين يقولون له: والله لقد أبليت اليوم يا قُزمان فأبشر، قال: بماذا؟ فوالله ما قاتلت إلا على أحساب قومي، فلولا ذلك ما قاتلت. فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «إنه من أهل النار، إن الله تعالى يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» (٥).

وفي هذا الخبر بيان لمكان النية في الجهاد، وأنه من قاتل حمية عن قومه أو ليقال شجاع... ولم تكن أعماله للّه تعالى لا يقبل الله منه.

---

(١) انظر: المغازي للواقدي (١/ ٢٦٣)، والسيرة لابن هشام (٣/ ٩٩).
(٢) انظر: تجريد أسماء الصحابة (٣/ ٧٠)، والإصابة (٣/ ٣٩٣).
(٣) انظر: الروض الأنف للسهيلي (٤/ ٤٠٨، ٤٠٩).
(٤) انظر: اليهود في السنة المطهرة (١/ ٣٠٦).
(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٩٩)، غزوة أحد دراسة دعوية، (ص ١١٣).

خامساً: من دلائل النبوة:

١ ـ عين قتادة بن النعمان ـ رضي الله عنه ـ:

أصيبت عين قتادة ـ رضي الله عنه ـ حتى سقطت على وجنتيه فردها رسول الله ﷺ بيده فكانت أحسن عينيه وأحدّهما، وأصبحت لا ترمد إذا رمدت الأخرى [(١)]، وقد قدم ولده على عمر بن عبد العزيز ح فسأله: من أنت؟

فقال له مرتجلاً:

أنا ابن الذي سالت على الخد عينه ... فردت بكف المصطفى أحسن الرد
فعادت كما كانت لأول أمرها ... فيا حسنها عيناً ويا حسن ما خد

فقال عمر بن عبد العزيز عند ذلك:

تلك المكارم لا قعبان من لبن ... شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

ثم وصله فأحسن جائزته [(٢)].

٢ ـ مقتل أُبي بن خلف:

كان أُبي بن خلف يلقى رسول الله بمكة، فيقول: يا محمد إن عندي العوْد، فرساً أعلفه كل يوم، أقتلك عليه، فقال رسول الله ﷺ: «بل أنا أقتلك إن شاء الله» فلما كان يوم أُحد، وأسند رسول الله ﷺ في الشعب أدركه أُبي بن خلف وهو يقول: أي محمد لا نجوتُ إن نجوتَ، فقال القوم: يا رسول الله أيعطف عليه رجل منا؟ فقال رسول الله ﷺ: «دعوه». فلما دنا تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة، فلما أخذها رسول الله ﷺ منه انتفض بها انتفاضة تطاير عنه من حوله تطاير الشعراء [(٣)] عن ظهر البعير إذا انتفض بها، ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تدأدأ [(٤)] منها عن فرسه مراراً، فلما رجع إلى قريش وقد خدشه في عنقه خدشاً غير كبير، فاحتقن الدم، قال: قتلني والله محمد، قالوا له: ذهب والله فؤادك.. والله إن بك من بأس، قال: إنه قد كان قال لي بمكة: أنا أقتلك، فوالله لو بصق عليّ لقتلني، فمات عدو الله بسرف [(٥)]، وهم قافلون به إلى مكة [(٦)].

وفي هذا الخبر مثل رفيع على شجاعة رسول الله ﷺ، فقد كان أُبي بن خلف مدجج بالسلاح، ومتدرعاً بالحديد الواقي ومع ذلك استطاع رسول الله ﷺ أن يطعنه بالرمح في فرجة صغيرة في عنقه بين الدرع والبيضة، وهذا يدل على قدرة رسول الله القتالية ودقته في إصابة الهدف، وفي هذا الخبر معجزة للنبي فقد أخبر أُبياً بأنه سوف يقتله بمشيئة الله وتمّ ذلك، وفي

---

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٢٨٨).
(٢) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٣٥).
(٣) الشُّعراء: ذباب له لدغ.
(٤) تدأدأ: تقلب عن فرسه فجعل يتدحرج.
(٥) سرف: موضع على ستة أميال من مكة.
(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٩٣، ٩٤).

الخبر عبرة في إيمان المشركين بصدق النبي ﷺ، وأنه إذا قال شيئاً وقع، فقد كان أُبي بن خلف على يقين بأنه سيموت من تلك الطعنة، ومع ذلك لم يدخلوا في الإسلام لعنادهم وعبادة أهوائهم [١]. وقد خلد حسان بن ثابت هذه الحادثة في شعره فقال:

لقد ورث الضَّلالة عن أبيه ... أبيُّ يوم بارزه الرسول
أتيت إليه تحمل رِمّ عظم ... وتوعده وأنت به جهول [٢]

المبحث الثالث

أحداث ما بعد المعركة

أولاً: حوار أبي سفيان مع الرسول ﷺ وأصحابه:

قال البراء رضي الله عنه: وأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا تجيبوه». فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال: «لا تجيبوه»، فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء القوم قتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا. فلم يملك عمر ـ رضي الله عنه ـ نفسه فقال: كذبت يا عدوّ الله، أبقى الله عليك ما يخزيك. قال أبو سفيان: أعل هُبل [٣]، فقال النبي ﷺ: «أجيبوه». قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: «الله أعلى وأجل»، قال أبو سفيان: لنا العُزّى ولا عزى لكم، فقال النبي ﷺ: «أجيبوه». قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: «الله مولانا ولا مولى لكم». قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال، وتجدون مُثلة، لم آمر بها ولم تسؤني [٤]، وفي رواية قال عمر: (لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار) [٥].

كان في سؤال أبي سفيان عن رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر دلالة واضحة على اهتمام المشركين بهؤلاء دون غيرهم، لأنه في علمهم أنهم أهل الإسلام وبه قام صرحه وأركان دولته وأعمدة نظامه، ففي موتهم يعتقد المشركون أنه لا يقوم الإسلام بعدهم.

وكان السكوت عن إجابة أبي سفيان أولاً تصغيراً له حتى إذا انتشى وملأه الكبر أخبروه بحقيقة الأمر وردوا عليه بشجاعة [٥].

وفي هذا يقول ابن القيم في تعليقه على هذا الحوار: فأمرهم بجوابه عند افتخاره بآلهته وبشركه، تعظيماً للتوحيد، وإعلاماً بعزة من عبده المسلمون، وقوة جانبه، وأنه لا يغلب، ونحن

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٥/ ١٦٩).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٩٤).
(٣) أعل هبل: ظهر دينك.
(٤) البخاري: المغازي، رقم (٤٠٤٣)، السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٩٢).
(٥) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٩٢).

حزبه وجنده ولم يأمرهم بإجابته حين قال: أفيكم محمد؟ أفيكم ابن أبي قحافة؟ أفيكم عمر؟ بل روي أنه نهاهم عن إجابته، وقال: «لا تجيبوه»، لأن كلمهم لم يكن برد في طلب القوم، ونار غيظهم بعد متوقدة، فلما قال لأصحابه: أما هؤلاء فقد كفيتموهم، حمي عمر بن الخطاب واشتد غضبه وقال: كذبت يا عدو الله، فكان في هذا الإعلام من الإذلال، والشجاعة وعدم الجبن، والتعرف إلى العدو في تلك الحال ما يؤذيهم بقوة القوم وبسالتهم، وأنهم لم يهنوا ولم يضعفوا، وأنه وقومه جديرون بعدم الخوف منهم، وقد أبقى الله لهم ما يسوؤهم منهم، وكان في الإعلام ببقاء هؤلاء الثلاثة وهلة بعد ظنه وظن قومه أنهم قد أصيبوا من المصلحة، وغيظ العدو وحزبه، والفتّ في عضده ما ليس في جوابه حين سأل عنهم واحداً واحداً، فكان سؤاله عنهم ونعيهم لقومه آخر سهام العدو وكيده، فصبر له النبي ﷺ حتى استوفى كيده، ثم انتدب له عمر، فرد بسهام كيده عليه، وكان ترك الجواب عليه أحسن، وذكره ثانياً أحسن، وأيضاً فإن في ترك إجابته حين سأله عنهم إهانة له وتصغيراً لشأنه، فلما منته نفسه موتهم، وظن أنهم قد قتلوا، وحصل له بذلك من الكبر والأشر ما حصل، كان في جوابه إهانة له وتحقير وإذلال، ولم يكن هذا مخالفاً لقول النبي ﷺ: «لا تجيبوه» فإنه إنما نهى عن إجابته حين سأل: أفيكم محمد؟ أفيكم فلان؟ ولم ينه عن إجابته حين قال: أما هؤلاء فقد قتلوا، وبكل حال فلا أحسن من ترك إجابته أولاً، ولا أحسن من إجابته ثانياً [١].

ثانياً: تفقد الرسول ﷺ الشهداء:

بعد أن انسحب أبو سفيان من أرض المعركة ذهب الرسول ﷺ ليتفقد أصحابه ـ ﷺ ـ، فمر على بعضهم، ومنهم حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، وحنظلة بن أبي عامر، وسعد بن الربيع والأصيرم، وبقية الصحابة ﷺ فلما أشرف عليهم رسول الله ﷺ قال: «أنا شهيد على هؤلاء، إنه ما من جريح يجرح في الله إلا والله بعثه يوم القيامة، يدمي جرحه، اللون لون دم، والريح ريح المسك، انظروا أكثر هؤلاء جمعاً للقرآن، فاجعلوه أمام أصحابه في القبر» [٢].

وقال جابر بن عبد الله في رواية البخاري: (إن النبي ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد ثم يقول: «أيهم أكثر أخذاً للقرآن»، فإذا أشير له إلى أحد قدّمه في اللحد، وقال: «أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة» وأمر بدفنهم بدمائهم، ولم يصلِّ عليهم، ولم يغسلوا) [٣]. وعن جابر بن عبد الله: أمر بقتلى أحد أن يردوا إلى مصارعهم وكانوا قد نُقلوا إلى المدينة.

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٠٢، ٢٠٣).

(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٠٩).

(٣) البخاري: كتاب المغازي، رقم (٤٠٧٩).

ولما رأى رسول الله ﷺ حمزة بن عبد المطلب وقد مثل به حزن حزناً شديداً، وبكى حتى نشغ [١] من البكاء [٢]، وقال ﷺ: «لولا أن تحزن صفية، ويكون سنة من بعدي لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم» فلما رأى المسلمون حزن رسول الله ﷺ وغيظه على من فعل بعمه ما فعل، قالوا: والله لئن ظفرنا الله بهم يوماً من الدهر لنمثلن بهم مُثلة لم يمثلها أحد من العرب [٣]، فنزل قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النّحل: الآية ١٢٦] لقد ارتكب المشركون صوراً من الوحشية، حيث قاموا بالتمثيل في قتلى المسلمين فبقروا بطون كثير من القتلى وجدعوا أنوفهم، وقطعوا الآذان ومذاكير بعضهم [٤]، ومع ذلك صبر رسول الله ﷺ وأصحابه واستجابوا لتوجيه المولى ﷻ، فعفا وصبر، وكفّر عن يمينه ونهى عن المثلة، روى ابن إسحاق بسنده عن سمرة بن جندب قال: (ما قام رسول الله ﷺ في مقام قط ففارقه، حتى يأمرنا بالصدقة وينهانا عن المثلة) [٥].

ثالثاً: دعاء الرسول ﷺ يوم أحد:

صلى رسول الله ﷺ بأصحابه الظهر قاعداً لكثرة ما نزف من دمه، وصلّى وراءه المسلمون قعوداً، وتوجه النبي ﷺ بعد الصلاة إلى الله بالدعاء والثناء على ما نالهم من الجهد والبلاء، فقال لأصحابه: «استووا حتى أثني على ربي ﷻ»، فصاروا خلفه صفوفاً ثم دعا بهذه الكلمات الدالة على عمق الإيمان [٦]، فقال ﷺ: «اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لما أضللت، ولا مضل لما هديت، ولا معطى لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مبعد لما قرّبت، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسألك النعيم يوم الغلبة، والأمن يوم الخوف، اللهم عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعت، اللهم حبّب إلينا الإيمان وزيّنه في قلوبنا، وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين. اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا نادمين ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الخلق» [٧] ثم ركب فرسه ورجع إلى

---

(١) النشغ: الشهيق حتى يكاد يبلغ به الغشي.
(٢) انظر: مختصر سيرة الرسول، لمحمد عبد الوهاب، (ص ٣٣١).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٠٦).
(٤) انظر: غزوة أحد لأبي فارس (ص ١٠٤).
(٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١٠٧).
(٦) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة (٢/ ٢١٠).
(٧) انظر: مجمع الزوائد (٦/ ١٢١، ١٢٢)، وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

المدينة [١].

وهذا أمر عظيم شرعه رسول الله ﷺ لأمته لكي يطلبوا النصر والتوفيق من رب العالمين، وبين لأمته أنّ الدعاء مطلوب في ساعة النصر والفتح وفي ساعة الهزيمة لأن الدعاء مخ العبادة، كما أنه من أقوى الأسباب في دفع المكروه، وحصول المطلوب، ويجعل القلوب متعلقة بخالقها، فينزل عليها السكينة والثبات والاطمئنان، ويمدها بقوة روحية عظيمة، فترتفع المعنويات نحو المعالي وتتطلع إلى ما عند الله تعالى.

في أعقاب المعركة، يتخذ النبي ﷺ أُهْبَتَه وينظم المسلمين صفوفاً، لكي يثني على ربّه ﷻ وإنه لموقف عظيم، يجلي إيماناً عميقاً، ويكشف عن العبودية المطلقة لرب العالمين الفعال لما يريد... فهو القابض والباسط والمعطي والمانع، لا راد ولا معقب لحكمه.

إن هذا الموقف من أعظم مواقف العبودية التي تسمو بالعابدين، وتجلّ المعبود، كأعظم ما يكون الإجلال والإكبار، وأبرز ما يكون الحمد والثناء [٢].

رابعاً: معرفة وجهة العدو:

بعد أن انسحب جيش المشركين من أرض المعركة أرسل رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد الغزوة مباشرة، وذلك لمعرفة اتجاه العدو، فقال له: «اخرج في آثار القوم وانظر ماذا يصنعون وما يريدون، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده إن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم»، قال علي: فخرجت في أثرهم ماذا يصنعون فجنبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة [٣] فرجع علي رضي الله عنه، وأخبر رسول الله بخبر القوم.

وفي هذا الخبر عدة دروس وعبر منها: يقظة الرسول ﷺ، ومراقبته الدقيقة لتحركات العدو، وقدرته ﷺ على تقدير الأمور، وظهور قوته المعنوية العالية ويظهر ذلك في استعداده لمقاتلة المشركين لو أرادوا المدينة، وفيه ثقة النبي ﷺ بعلي رضي الله عنه ومعرفته بمعادن الرجال، وفيه شجاعة علي رضي الله عنه، لأن هذا الجيش لو أبصره ما تورع في محاولة قتله [٤]، ونلحظ أن النبي ﷺ أقام في أرض المعركة بعد أن انتهت، تفقّد خلالها الجرحى والشهداء، وأمر بدفنهم، ودعا ربه وأثنى عليه سبحانه، وأرسل علياً ليتتبع خبر القوم، كل ذلك من أجل أن يحافظ على النصر الذي أحرزه المسلمون في غزوة أحد، وهذا من فقه سنن الله تعالى في الحروب والمعارك، فقد

(١) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٩٤).
(٢) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، د. محمد فيض الله، (ص ١٣٢، ١٣٣).
(٣) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٤١).
(٤) انظر: غزوة أحد لأبي فارس، (ص ٩٥، ٩٦).

جعل سبحانه من سننه في خلقه أن جعل للنصر أسباباً، وللهزيمة أسباباً، فمن أخذ بأسباب النصر، وصدق التوكل على الله سبحانه وتعالى حقيقة التوكل نال النصر بإذن الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفَتْح: الآية ٢٣].

ويتجلى فقه النبي ﷺ في ممارسة سنة الأخذ بالأسباب في غزوة حمراء الأسد.

خامساً: غزوة حمراء الأسد:

نجد في بعض الروايات: أن النبي ﷺ تابع أخبار المشركين بواسطة بعض أتباعه حتى بعد رجوعهم إلى مكة، وبلغه مقالة أبي سفيان يلوم فيها جنده لكونهم لم يشفوا غليلهم من محمد وجنده، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما انصرف أبو سفيان والمشركون من أحد وبلغوا الرّوحاء [١]، قال أبو سفيان: لا محمداً قتلتم ولا الكواعب أردفتم، شر ما صنعتم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ [٢]، وتفيد هذه الرواية خبر استطلاع الرسول ﷺ أعداءه حتى بعد انتهاء المعركة وذلك لكي يطمئن على عدم مباغتتهم له.

وعندما سمع ما كان تعزم عليه قريش من العودة إلى المدينة خرج بمن حضره يوم أحد من المسلمين دون غيرهم إلى حمراء الأسد.

قال ابن إسحاق: كان يوم أُحد يوم السبت للنصف من شوال، فلما كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال أذّن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس بطلب العدو، وأذّن مؤذنه أن لا يخرجن معنا إلا من حضر يومنا بالأمس، فاستأذنه جابر بن عبد الله في الخروج معه فأذن له، وإنما خرج مرهباً للعدو، وليظنوا أن الذي أصابهم لم يوهنهم عن طلب عدوهم [٣]، وقد استجاب أصحاب النبي ﷺ لنداء الجهاد حتى الذين أصيبوا بالجروح، فهذا رجل من بني عبد الأشهل يقول: شهدت أحداً أنا وأخ لي فرجعنا جريحين، فلما أذّن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو قلت لأخي وقال لي: أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ؟ والله ما لنا من دابة نركبها وما منا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول الله، وكنت أيسر جرحاً منه، فكان إذا غلب حملته عقبة [٤] ومشى عقبة حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون [٥].

وسار رسول الله ﷺ إلى حمراء الأسد واقترب بجنوده من جيش المشركين، فأقام فيه ثلاثة

---

(١) الرّوحاء: تبعد عن المدينة ٧٣ كيلومتراً في طريق مكة.

(٢) انظر: مجمع الزوائد للهيثمي (٦/ ١٢١). قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير محمد بن منصور الجوّاز.

(٣) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٥٠).

(٤) عقبة: فترة.

(٥) المصدر نفسه، (٤/ ٥٠).

أيام يتحدى المشركين، فلم يتشجعوا على لقائه ونزاله، وكان رسول الله ﷺ قد أمر بإشعال النيران فكانوا يشعلون في وقت واحد خمسمائة نار [١].

وأقبل معبد بن أبي معبد الخزاعي إلى رسول الله ﷺ فأسلم، فأمره أن يلحق بأبي سفيان، فيخذِّله، فلحقه بالروحاء ولم يعلم بإسلامه، فقال: ما وراءك يا معبد؟ فقال: محمد وأصحابه، فقد تحرقوا عليكم، وخرجوا في جمع لم يخرجوا في مثله، وقد ندم من كان تخلف عنهم من أصحابهم، فقال: ما تقول: فقال: ما أرى أن ترتحل حتى يطلع أول الجيش من وراء هذه الأكمة [٢]، فقال أبو سفيان: والله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصلهم، قال معبد: فإني أنهاك عن ذلك، والله لقد حملني ما رأيت على أن قلت فيه أبياتاً من شعر:

قال: وما قلت؟ قال: قلت:

كادت تُهدُّ من الأصوات راحلتي ... إذ سالت الأرض بالجرد [٣] الأبابيل
تُردى [٤] بأسد كرام لا تنابلة [٥] ... عند اللقاء ولا ميل [٦] معازيل [٧]
فظلت عدواً أظن الأرض مائلة ... لما سموا برئيس غير مخذول
فقلت: ويلَ ابن حرب من لقائكم ... إذا تغطمطت البطحاء بالجيل [٨]
إني نذير لأهل البَسل ضاحية ... لكل ذي أُربة منهم ومعقول
من جيش أحمد لا وخش [٩] قنابله ... وليس يوصف ما أنذرت بالقيل [١٠]

فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه، وحاول أبو سفيان أن يغطي انسحابه هذا بشن حرب نفسية على المسلمين، لعلّه يرهبهم، فأرسل مع ركب عبد القيس ـ وكانوا يريدون المدينة للميرة ـ رسالة إلى رسول الله ﷺ مفادها أن أبا سفيان وجيشه قد أجمعوا على السير إليه وإلى أصحابه ليستأصلهم من الوجود، وواعد أبو سفيان الركب أن يعطيهم زبيباً عندما يأتونه في سوق عكاظ، ومرّ الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد فأخبروه بالذي قال أبو سفيان، فقال هو والمسلمون حسبنا الله ونعم الوكيل [١١]، واستمر المسلمون في معسكرهم وآثرت قريش السلامة والأوبة، فرجعوا إلى مكة، وبعد ذلك عاد المسلمون إلى المدينة بروح قوية متوثبة، غسلت عار الهزيمة، ومسحت مغبة الفشل، فدخلوها أعزة رفيعي الجانب، عبثوا بانتصار المشركين، وهزوا

---

(١) انظر: غزوة أُحد لأبي فارس، (ص ١٤٤) نقلاً عن الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ٤٣).
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٤٥).
(٣) الجرد: جمع أجرد وهو الضرسي قصير الشعر، والأبابيل: الفرق الكثيرة.
(٤) تردي: تسرع.
(٥) تنابلة: جمع تنبال وهو القصير.
(٦) الميل: جمع أميل، وهو الجبان.
(٧) معازيل: جمع معزال وهو من لا رُمح معه.
(٨) تغطمطت: اضطربت وثارت.
(٩) وخش: رديء.
(١٠) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٥١).
(١١) تاريخ الإسلام للذهبي، المغازي (ص ٢٢٦).

أعصابهم، وأحبطوا شماتة المنافقين واليهود في المدينة، وأشار القرآن الكريم إلى هذه الحرب الباردة، وسجّل ظواهرها [١] بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٧٢ ـ ١٧٥].

ووقع في أسر النبي ﷺ قبل رجوعه إلى المدينة أبو عزة الجمحي الشاعر فقتل صبراً لأنه أخلف وعده للرسول ﷺ بأن لا يقاتل ضده عندما منّ عليه ببدر وأطلقه فعاد فقاتل في أحد، وقد حاول أبو عزة أن يتخلص من القتل وقال: يا رسول الله أقلني، فقال رسول الله ﷺ: «لا والله، لا تمسح عارضيك [٢] بمكة بعدها وتقول: خدعت محمداً مرتين، اضرب عنقه يا زبير» [٣] فضرب عنقه، فقال النبي ﷺ حينئذ: «لا يلدغ المؤمن من حجر واحد مرتين» [٤]. فصار هذا الحديث مثلاً ولم يسمع قبل ذلك.

ويعد هذا العمل من قبيل السياسة الشرعية، لأن هذا الشاعر من المفسدين في الأرض، الداعين إلى الفتنة، ولأن في المنّ عليه تمكيناً له من أن يعود حرباً على المسلمين.

ولم يُؤْسَر من المشركين سوى أبي عزة الجمحي [٥].

وأما عدد القتلى من المسلمين في أحد فقد انجلت المعركة عن سبعين شهيداً من المسلمين ويؤيد هذا تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عِمرَان: ١٦٥] أنها نزلت تسلية للمؤمنين عمن أصيب منهم يوم أُحد، قال ابن عطية ح: وكان المشركون قد قتلوا منهم سبعين نفراً، وكان المسلمون قد قتلوا من المشركين ببدر سبعين وأسروا سبعين [٦]، أما عدد الذين قتلوا يوم أُحد من المشركين اثنان وعشرون قتيلاً [٧]. كان خروج رسول الله ﷺ لملاحقة المشركين في غزوة حمراء الأسد يهدف لتحقيق مجموعة من المقاصد المهمة منها:

١ ـ أن لا يكون آخر ما تنطوي عليه نفوس الذين خرجوا يوم أحد هو الشعور بالهزيمة.

---

(١) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، (ص ١٤٢).
(٢) عارضيك: هما جانبا الوجه، لسان العرب (٢/ ٧٤٢).
(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ١١٦).
(٤) البخاري: كتاب الأدب، باب «لا يلدغ المرء» (٧/ ١٣٤)، رقم (٦١٣٣).
(٥) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٥٣).
(٦) المحرر الوجيز لابن عطية (٣/ ٤١١).
(٧) مرويات غزوة أحد للباكري، (ص ٣٦٧، ٣٦٩).

٢ - إعلامهم أن لهم الكرة على أعدائهم متى نفضوا عنهم الضعف والفشل واستجابوا لدعوة الله ورسوله.

٣ - تجزئة الصحابة على قتال أعدائهم.

٤ - إعلامهم أن ما أصابهم في ذلك اليوم إنما هو محنة وابتلاء اقتضتهما إرادة الله، وحكمته، وأنهم أقوياء وأن خصومهم الغالبين في الظاهر ضعفاء [١].

كما أن في خروج النبي ﷺ إلى حمراء الأسد إشارة نبوية إلى أهمية استعمال الحرب النفسية للتأثير على معنويات الخصوم، حيث خرج ﷺ بجنوده إلى حمراء الأسد ومكث فيها ثلاثة أيام، وأمر بإيقاد النيران فكانت تشاهد من مكان بعيد وملأت الأرجاء بأنوارها، حتى خيل لقريش أن جيش المسلمين ذو عدد كبير لا طاقة لهم به فانصرفوا وقد ملأ الرعب أفئدتهم [٢].

قال ابن سعد: (ومضى رسول الله ﷺ بأصحابه حتى عسكروا بحمراء الأسد، وكان المسلمون يوقدون تلك الليالي خمسمائة نار حتى تُرى من المكان البعيد، وذهب صوت معسكرهم ونيرانهم في كل وجه فكبت الله تعالى بذلك عدوهم) [٣].

سادساً: مشاركة نساء المسلمين في معركة أُحد:

كانت غزوة أحد أول معركة في الإسلام تشارك فيها نساء المسلمين، وكان لهذا أثر بالغ في سقي المحاربين وتضميد الجرحى، وقد ظهرت بطولات النساء وصدق إيمانهن في هذه المعركة، فقد خرجن لكي يسقين العطشى ويداوين الجرحى، ومنهن من قامت برد ضربات المشركين الموجهة للرسول ﷺ، ومن شاركن في غزوة أحد أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق، وأم عمارة، وحمنة بنت جحش الأسدية، وأم سليط وأم سُليم ونسوة من الأنصار [٤]، قال ثعلبة بن أبي مالك رضي الله عنه: (إن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، قسم مروطاً بين نساء من نساء المدينة، فبقي منها مرط جيد، فقال له بعض من عنده: يا أمير المؤمنين، أعط هذا بنت رسول الله ﷺ التي عندك، يريدون أم كلثوم بنت علي، فقال عمر رضي الله عنه: أم سَليط أحق به، وأم سليط من نساء الأنصار، ممن بايع رسول الله ﷺ، قال عمر: فإنها كانت تُزفر [٥] لنا القرب يوم أُحد [٦].

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (١/ ٥١٩).
(٢) انظر: غزوة أحد لأبي فارس، (ص ٥١).
(٣) انظر: الطبقات لابن سعد (٢/ ٤٩).
(٤) مسلم، كتاب الجهاد باب «غزو النساء» رقم (١٧٧٩).
(٥) تزفر: تحمل القرب مملوءة بالماء.
(٦) البخاري، كتاب المغازي رقم (٤٠٧١).

١ ـ سقى العطشى من المجاهدين:

عن أنس ﷺ قال: (لما كان يوم أُحد انهزم الناس عن النبي ﷺ قال: ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سُليم، وإنهما لمشمرتان أرى خدم سوقهن تَنْقُزَان[١] القرب ـ وقال غيره: تنقلان القرب على متونهما، ثم تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغانها في أفواه القوم[٢].

وقال كعب بن مالك ﷺ: (رأيت أم سليم بنت ملحان وعائشة على ظهورهما القرب يحملانها يوم أحد، وكانت حمنة بنت جحش تسقي العطشى وتداوي الجرحى، وكانت أم أيمن، تسقي الجرحى[٣].

٢ ـ مداواة الجرحى ومواساة المصابين:

عن أنس بن مالك ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يغزو بأم سليم، ونسوة من أنصار معه إذا غزا، فيسقين الماء ويداوين الجرحى [٤].

وأخرج عبد الرزاق عن الزهري: (كان النساء يشهدون مع النبي ﷺ المشاهد ويسقين المقاتلة ويداوين الجرحى) [٥].

وعن الرُّبيع بنت معوذ قالت: «كنا مع النبي ﷺ نسقي، وندواي الجرحى، ونرد القتلى إلى المدينة» وفي رواية «كنا نغزو مع النبي ﷺ فنسقي القوم ونخدمهم، ونرد الجرحى والقتلى إلى المدينة» [٦].

وعن أبي حازم أنه سمع سهل بن سعد، ﷺ، وهو يسأل عن جرح رسول الله ﷺ فقال: أما والله إني لأعرف من كان يغسل جرح رسول الله ﷺ، ومن كان يسكب الماء، وبما دُوي. قال: كانت فاطمة ﷺ بنت رسول الله ﷺ تغسله، وعليّ يسكب الماء بالمجنّ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة، أخذت قطعة من حصير فأحرقتها وألصقتها فاستمسك الدم [٧].

---

(١) تنقزان: أي تحملان وتقفزان بها وثباً.
(٢) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب «غزو النساء» رقم (٢٨٨٠).
(٣) انظر: المغازي للواقدي (١/ ٢٤٩).
(٤) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب «غزة النساء مع الرجال» رقم (١٨١٠).
(٥) البخاري: فتح الباري لابن حجر (٦/ ٩٢) عند حديث قم (٢٨٨٠).
(٦) البخاري: كتاب الجهاد والسير، رقم (٢٨٨٢، ٢٨٨٣).
(٧) البخاري: كتاب المغازي، رقم (٤٠٧٥).

٣ ـ الدفاع عن الإسلام ورسوله بالسيف:

لم تقاتل المشركين يوم أحد إلا أم عمارة نسيبة المازنية رضي الله عنها، وهذا ضمرة بن سعيد يحدث عن جدته، وكانت قد شهدت أحداً تسقي الماء قالت: سمعت النبي ﷺ يقول: لمقام نسيبة بنت كعب اليوم خير من مقام فلان وفلان، وكان يراها تقاتل يومئذٍ أشد القتال، وإنها لحاجزة ثوبها على وسطها، حتى جرحت ثلاثة عشر جرحاً فلما حضرتها الوفاة كنت فيمن غسلها، فعددت جراحها جرحاً جرحاً فوجدتها ثلاثة عشر جرحاً. وكانت تقول: إني لأنظر إلى ابن قميئة وهو يضربها على عاتقها ـ وكان أعظم جراحها ـ لقد داوته سنة ـ ثم نادى منادِ النبي ﷺ: إلى حمراء الأسد! فشدّت عليها ثيابها فما استطاعت من نزف الدم، ولقد مكثنا ليلنا نكمد الجراح حتى أصبحنا، فلما رجع رسول الله ﷺ من الحمراء، ما وصل إلى بيته حتى أرسل إليها عبد الله بن كعب المازني [١] ـ أخو أم عمارة ـ يسأل عنها، فرجع إليه يخبره بسلامتها، فسر النبي ﷺ بذلك [٢].

وقد علّق الأستاذ حسين الباكري عن مشاركة نسيبة بنت كعب في القتال فقال: وخروج المرأة للقتال مع الرجال لم يثبت في ذلك منه شيء غير قصة نسيبة، وقتال نسيبة إنما كان اضطرارياً حين رأت أن رسول الله أصبح في خطر حين انكشف عنه الناس، فأم عمارة كانت في موقف أصبح حمل السلاح فيه واجباً على من يقدر على حمله رجلاً كان أو امرأة [٣].

وعلّق الدكتور أكرم ضياء العمري على الآثار الدالة في مشاركة النساء في أُحد بقوله: وهذه الآثار تدل على جواز الانتفاع بالنساء عند الضرورة لمداواة الجرحى وخدمتهم إذا أمنت فتنتهن مع لزومهن الستر والصيانة، ولهن أن يدافعن عن أنفسهن بالقتال إذا تعرّض لهن الأعداء، مع أن الجهاد فرض على الرجال وحدهم إلا إذا داهم العدو ديار المسلمين فيجب قتاله من الجميع رجالاً ونساء [٤].

وأما الأستاذ محمد أحمد باشميل فقد قال: وقد كانت معركة أحد أول معركة قاتلت فيها المرأة المسلمة المشركين في الإسلام، ومن الثابت أن امرأة واحدة فقط اشتركت في هذه المعركة، وهي تدافع عن رسول الله ﷺ، كما أنه من الثابت أيضاً أن المرأة التي اشتركت في معركة أحد، لم تخرج بقصد القتال فهي لم تكن مجنّدة فيها كالرجال، وإنما خرجت لتنظر ما يصنع الناس لتقوم بأية مساعدة يمكنها القيام بها للمسلمين كإغاثة الجرحى بالماء وما شابه ذلك، يضاف إلى هذا أن هذه المرأة التي خاضت معركة أحد هي امرأة قد تخطّت سن

(١) أخو أم عمارة. انظر: الذهبي سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٧٨).
(٢) المغازي للواقدي (١/ ٢٦٩، ٢٧٠).
(٣) انظر: مرويات غزوة أُحد، (ص ٢٥٤).
(٤) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٩١).

الشباب، كما أنها لم تخرج إلى المعركة إلا مع زوجها وابنيها الذين كانوا من الجند الذين قاتلوا في المعركة، يضاف إلى هذا الرصيد الهائل الذي لديها من المناعة الخلقية والتربية الدينية، فلا يقاس على هذه الصحابية الجليلة مجنّدات هذا الزمان اللواتي يرتدين لباس الميدان وعنصر الإغراء والفتنة هو أهم عنصر يتميزن به ويحرصن على إظهاره للرجال فأين الثرى من الثريا؟؟

كذلك رجال ذلك العصر لا يقاس عليهم أحد من رجال هذا الزمان من ناحية الشهامة والاستقامة والعفة والرجولة، فكل المحاربين الذين اشتركت معهم امرأة في معركة أحد كانوا صفوة الأمة الإسلامية ورمز نبلها وشهامتها وعنوان رجولتها واستقامتها.. فلا يصح مطلقاً جعل اشتراك تلك المرأة في معركة أحد قاعدة تقاس عليها (من الناحية الشرعية)، إباحة تجنيد المرأة في هذا العصر لتقاتل بجانب الرجل (كعنصر أساسي من عناصر الجيش)، فالقياس في هذه الحالة قياس مع الفارق وهو قياس باطل قطعاً [١].

سابعاً: دروس في الصبر تقدمها صحابيات للأمة.

١ ـ صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها:

لما استشهد أخوها حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه في أحد، وجاءت لتنظر إليه وقد مثل به المشركون فجدعوا أنفه وبقروا بطنه، وقطعوا أذنيه ومذاكيره، فقال رسول الله ﷺ لابنها الزبير بن العوام: «القها فارجعها، لا ترى ما بأخيها، فقال لها: يا أمة إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي، قالت: ولِمَ؟ وقد بلغني أنه قد مثل بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك! لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله.

فلما جاء الزبير بن العوام رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك، قال: خلِّ سبيلها، فأتته، فنظرت إليه، فصّلت عليه واسترجعت [٢]، واستغفرت له [٣].

٢ ـ حمنة بنت جحش رضي الله عنها:

لما فرغ رسول الله ﷺ من دفن أصحابه رضي الله عنهم ركب فرسه وخرج المسلمون حوله راجعين إلى المدينة، فلقيته حمنة بنت جحش، فقال لها رسول الله ﷺ: يا حمنة احتسبي، قالت: من يا رسول الله؟ قال: «خالك حمزة بن عبد المطلب»، قالت: إنا للّه وإنا إليه راجعون، غفر الله له، هنيئاً له الشهادة، ثم قال لها: احتسبي، قالت: من يا رسول الله؟ قال: زوجك مصعب بن عمير، قالت: واحزناه، وصاحت وولولت، فقال رسول الله ﷺ: إن زوج المرأة منها لبمكان،

---

(١) انظر: غزوة أُحد، محمد باشميل، (ص ١٧١، ١٧٣).

(٢) استرجعت: قالت: إنا للّه وإنا إليه راجعون.

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/١٠٨).

لما رأى من تثبتها على أخيها وخالها، وصياحها على زوجها ثم قال لها: ولِمَ قلت هذا؟ قالت: يا رسول الله، ذكرت يتم بنيه فراعني، فدعا لها رسول الله ﷺ ولولدها أن يحسن الله تعالى عليهم من الخلف [١]، فتزوجت طلحة بن عبيد الله فولدت منه محمداً وعمران [٢]، فكان محمد بن طلحة أوصل الناس لولدها [٣].

٣ ـ المرأة الدينارية رضي الله عنها :

قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : مرّ رسول الله ﷺ بامرأة من بني دينار، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأحد، فلما نعوا لها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قال خيراً يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبّين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فأُشير لها إليه، حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل [٤]، تريد صغيرة وهكذا يفعل الإيمان في نفوس المسلمين.

٤ ـ أم سعد بن معاذ وهي كبشة بنت عبيد الخزرجية رضي الله عنها :

خرجت أم سعد بن معاذ تعدو نحو رسول الله ﷺ، ورسول الله واقف على فرسه، وسعد بن معاذ آخذ بعنان فرسه، فقال سعد: يا رسول الله، أمي، فقال رسول الله: مرحباً بها، فدنت حتى تأملت رسول الله ﷺ، فقالت: أما إذا رأيتك سالماً، فقد أشوت [٥] المصيبة، فعزاها رسول الله ﷺ بعمرو بن معاذ ابنها، ثم قال: يا أم سعد، أبشري وبشري أهليهم أن قتلاهم قد ترافقوا في الجنة جميعاً ـ وهم اثنا عشر رجلاً ـ وقد شفعوا في أهليهم. قالت: رضينا يا رسول الله، ومن يبكي عليهم بعد هذا؟ ثم قالت: ادع يا رسول الله لمن خُلِّفوا. فقال رسول الله ﷺ: اللهم أذهب حزن قلوبهم واجْبُر مصيبتهم، وأحسن الخَلَف على من خُلِّفوا [٦].

المبحث الرابع

بعض الدروس والعبر والفوائد

لقد وصف القرآن الكريم غزوة أحد وصفاً دقيقاً، وكان التصوير القرآني للغزوة أقوى حيوية ووضوحاً من الروايات التي جاءت في الغزوة، كما أن أسلوب الآيات المطمئنة المبشرة واللائمة، والمسكنة والواعظة كان رائعاً وقوياً، فبيّن القرآن الكريم نفوس جيش النبي ﷺ، وهذا

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٧٤)، غزوة أحد دراسة دعوية، (ص ٢٣٦).
(٢) انظر: الإصابة (٨/ ٨٨)، رقم (١١٠٦٠).
(٣) انظر: غزوة أُحد لأبي فارس، (ص ١٠٩).
(٤) انظر: البداية والنهاية (٤/ ٤٨).
(٥) أشوَت: صارت صغيرة خفيفة.
(٦) انظر: مغازي الواقدي (١/ ٣١٥، ٣١٦).

تميز لحديث القرآن عن الغزوة، ينفرد به عما جاء في كتب السيرة، فسلّط القرآن الكريم الأضواء على خفايا القلوب، التي ما كان المسلمون أنفسهم يعرفون وجودها في قلوبهم والناظر عموماً في منهج القرآن في التعقيب على غزوة أحد يجد الدقة والعمق والشمول.. يقول سيد قطب: الدقة في تناول كل موقف، وكل حركة وكل خالجة، والعمق في التدسس إلى أغوار النفس ومشاعرها الدفينة، والشمول لجوانب النفس وجوانب الحادث.

كما نجد الحيوية في التصوير والإيقاع والإيحاء، بحيث تتماوج المشاعر مع التعبير والتصوير تماوجاً عميقاً عنيفاً، ولا تملك أن تقف جامدة أمام الوصف، أما التعقيب فهو وصف حي، يستحضر المشاهد ـ كما لو كانت تتحرك ـ ويشيع حولها النشاط المؤثر والإشعاع النافذ والإيحاء المثير [١].

إن حركة النبي ﷺ في تربية الأمة، وإقام الدولة، والتمكين لدين الله يعتبر انعكاساً في دنيا الحياة لمفاهيم القرآن الكريم، التي سيطرت على مشاعره وأفكاره وأحاسيسه ﷺ، ولذلك نجد أن النبي ﷺ في علاجه لأثر الهزيمة في أحد تابع للمنهج القرآني الكريم، ونحاول تسليط الأضواء على بعض النقاط المهمة في هذا المنهج.

أولاً: تذكير المؤمنين بالسنن ودعوتهم للعلو الإيماني:

قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٧ ـ ١٣٩].

إن المتأمل في هذه الآيات الكريمة يجد أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يترك المسلمين لوساوس الشيطان في محنة غزوة أحد، بل خاطبهم بهذه الآيات التي بعث بها الأمل في قلوبهم، وأرشدهم إلى ما يقويهم ويثبتهم، ويمسح بتوجيهاته دموعهم ويخفف عنهم آلامهم [٢].

قال القرطبي: هو تسلية من الله تعالى للمؤمنين [٣].

ففي الآيات السابقة دعوة للتأمل في مصير الأمم السابقة التي كذّبت دعوة الله تعالى، وكيف جرت فيهم سنته على حسب عادته، وهي الإهلاك والدمار بسبب كفرهم وظلمهم وفسوقهم على أمره.

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٥٣٢).
(٢) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ١٩٠).
(٣) انظر: تفسير القرطبي (٤/ ٢١٦).

وجاء التعبير بلفظ كيف الدال على الاستفهام، المقصود به تصوير حالة هؤلاء المكذبين التي تدعو إلى التعجب، وتثير الاستغراب، وتغرس الاعتبار والاتعاظ في قلوب المؤمنين، لأن هؤلاء المكذبين مكّن الله لهم في الأرض ومنحهم الكثير من نعمه... ولكنهم لم يشكروه عليها، فأهلكهم بسبب طغيانهم [١].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٣٩] دعاهم إلى ترك الضعف، ومحاربة الجبن، والتخلص من الوهن، وعدم الحزن، لأنهم هم الأعلون بسبب إيمانهم.

ثانياً: تسلية المؤمنين وبيان حكمة الله فيما وقع يوم أُحد:

قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٤٠ ـ ١٤٣].

بيَّن الله ﷻ لهم أن الجروح والقتل يجب أن لا تؤثر في جسدهم واجتهادهم في جهاد العدو، وذلك لأنه كما أصابهم ذلك فقد أصاب عدوهم مثله من قبل ذلك، فإذا كانوا مع باطلهم وسوء عاقبتهم لم يفتروا لأجل ذلك في الحرب، فبأن لا يلحقكم الفتور مع حسن العاقبة والتمسك بالحق أولى [٢].

وقال صاحب الكشاف: والمعنى: إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم قبله يوم بدر، ثم لم يضعف ذلك قلوبهم، ولم يثبطهم عن معاودتكم بالقتال فأنتم أولى أن لا تضعفوا [٣].

فعن ابن عباس ﷺ قال: إنه كان يوم أحد بيوم بدر، قتل المؤمنون يوم أحد، واتخذ الله منهم شهداء، وغلب رسول الله ﷺ يوم بدر المشركين فجعل الدولة عليهم [٤].

وقد ذكر الله تعالى أربع حكم لما حدث للمؤمنين في غزوة أحد وهي: تحقق علم الله تعالى وإظهاره للمؤمنين، وإكرام بعضهم بالشهادة التي توصل صاحبها إلى أعلى الدرجات، وتطهير المؤمنين، وتخليصهم من ذنوبهم ومن المنافقين، ومحق الكافرين واستئصالهم رويداً رويداً [٥].

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ١٩١).
(٢) انظر: تفسير الرازي (٩/ ١٤).
(٣) انظر: تفسير الكشاف (١/ ٤٦٥).
(٤) انظر: تفسير الرازي (٤/ ١٠٥).
(٥) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول (١/ ١٩٩).

ثالثاً: كيفية معالجة الأخطاء:

ترفق القرآن الكريم وهو يعقب على ما أصاب المسلمين في (أحد) على عكس ما نزل في بدر من آيات، فكان أسلوب القرآن الكريم في محاسبة المنتصر على أخطائه أشد من حساب المنكسر فقال في غزوة بدر: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: ٦٧ ـ ٦٨] .

وقال في أحد: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] .

وفي هذا حكمة عملية، وتربية قرآنية، يحسن أن يلتزمها أهل التربية والقائمون على التوجيه [١].

رابعاً: ضرب المثل بالمجاهدين السابقين:

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ۚ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦ ـ ١٤٨] .

قال ابن كثير: عاتب الله بهذه الآيات والتي قبلها من انهزم يوم أحد وتركوا القتال وسمعوا الصائح يصيح «إن محمداً قد قُتل» فَعَذَلَهُم الله على فرارهم وتركهم القتال [٢].

وضرب الله لهم مثلاً بإخوانهم المجاهدين السابقين، وهم جماعات كثيرة، ساروا وراء أنبيائهم في درب الجهاد في سبيل الله مجاهدة فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وما ضعفوا عن الجهاد بعد الذي أصابهم منه وما استكانوا للعدو، بل ظلوا صابرين ثابتين في جهادهم، وفي هذا تعريض بالمسلمين الذين أصابهم الوهن والانكسار عند الإرجاف بقتل رسول الله ﷺ، وبضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين واستكانتهم لهم، وضرب الله مثلاً للمؤمنين لتثبيتهم بأولئك الربانيين وبما قالوه: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧] .

وهذا القول هو إضافة الذنوب والإسراف إلى نفوسهم ـ مع كونهم ربانيين ـ هضم لها،

---

(١) انظر: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، (ص ١٣٧).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤١٠) بتصرف.

واعتراف منهم بالتقصير، ودعاؤهم بالاستغفار من ذنوبهم مقدّم على طلبهم تثبيت أقدامهم أمام العدو، ليكون طلبهم إلى ربهم النصر عن زكاة وطهارة وخضوع، وفي هذا تعليم للمسلمين إلى أهمية التضرع، والاستغفار وتحقيق التوبة وتظهر أهمية ذلك في إنزال النصر على الأعداء ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: الآية ١٤٨] أي وبذلك نالوا ثواب الدارين: النصر والغنيمة في الدنيا، والثواب الحسن في الآخرة، جزاء إحسانهم في أدب الدعاء والتوجه إلى الله، وإحسانهم في موقف الجهاد وكانوا بذلك مثلاً يضربه الله للمسلمين المجاهدين، وخص الله تعالى ثواب الآخرة بالحسن دلالة على فضله وتقدمه على ثواب الدنيا وأنه هو المعتمد عنده [١].

خامساً: مخالفة ولي الأمر تسبب الفشل لجنوده:

ويظهر ذلك في مخالفة الرماة لأمر النبي ﷺ، ووقوعهم في الخطأ الفظيع، الذي قلب الموازين، وأدى إلى الخسائر الفادحة التي لحقت بالمسلمين ولكي نعرف أهمية الطاعة لولي الأمر، نلحظ أن انخذال عبد الله بن أبي ومن معه من المنافقين لم يؤثر على المسلمين، بينما الخطأ الذي ارتكبه الرماة الذين أحسن الرسول ﷺ تربيتهم وأسند لكل واحد منهم عملاً، ثم خالفوا أمره ﷺ كان ضرره على المسلمين عامة، حيث سلّط الله عليهم عدوهم، وذلك بسبب عصيان الأوامر، ثم اختلطت أمورهم وتفرّقت كلمتهم، وكاد يُقضى على الدعوة الإسلامية وهي في مهْدها.

ونلحظ من خلال أحداث غزوة أحد: أن المسلمين انتصروا في أول الأمر حينما امتثلوا لأوامر الرسول ﷺ، وانقادوا لتعليمات قائدهم وأميرهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه، بينما انهزموا حينما خالفوا أمره ﷺ ونزل الرماة من الجبل لجمع الغنائم مع بقية الصحابة [٢]، رضي الله عنهم، قال تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

يقول الشيخ محمد بن عثيمين: (ومن آثار عدم الطاعة ما حصل من معصية بعض الصحابة رضي الله عنهم، للنبي ﷺ، وهم يجاهدون في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله... والذي حصل أنه لما كانت الغلبة للمؤمنين، ورأى بعض الرماة أن المشركين انهزموا، تركوا الموضع الذي أمرهم النبي ﷺ ألا يبرحوه، وذهبوا مع الناس، وبهذا كر العدو عليهم من الخلف، وحصل ما حصل من الابتلاء والتمحيص للمؤمنين وقد أشار الله تعالى إلى هذه العلة بقوله تعالى:

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٢٠٤).

(٢) انظر: غزوة أُحد دراسة دعوية، (ص ٢٠٧ ـ ٢٠٩).

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

هذه المعصية التي فات بها نصر انعقدت أسبابه، وبدت أوائله، وهي معصية واحدة والرسول عليه الصلاة والسلام بين أظهرهم، فكيف بالمعاصي الكثيرة؟ ولهذا نقول: إن المعاصي من آثارها أن الله يسلط بعض الظالمين على بعض بما كانوا يكسبون، ويفوتهم من أسباب النصر والعزة بقدر ما ظلموا فيه أنفسهم [١].

سادساً: خطورة إيثار الدنيا على الآخرة:

وردت نصوص عديدة من آيات وأحاديث تبيِّن منزلة الدنيا عند الله وتصف زخارفها وأثرها على فتنة الإنسان، وتحذر من الحرص عليها قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عِمرَان: ١٤].

وقد حذّر الرسول الكريم ﷺ أمته من الاغترار بالدنيا، والحرص الشديد عليها في أكثر من موضع، وذلك لما لهذا الحرص من أثره السيء على الأمة عامة وعلى من يحملون لواء الدعوة خاصة، ومن ذلك:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء» [٢] ويظهر للباحث أثر الحرص على الدنيا في غزوة أحد.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما هزم الله المشركين يوم أحد، قال الرماة: (أدركوا الناس ونبي الله، لا يسبقوكم إلى الغنائم، فتكون لهم دونكم) وقال بعضهم: (لا نريم [٣] حتى يأذن لنا النبي ﷺ) [٤] فنزلت: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٢].

قال الطبري: قوله سبحانه: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني الغنيمة، قال ابن مسعود: ما كنت أرى أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى نزل فينا يوم أحد [٥] ﴿مِنكُم مَّن

---

(١) انظر: الطاعة والمعصية وأثرهما في المجتمع، محمد بن العثيمين نقلاً عن غزوة أُحد، (ص ٢١١).
(٢) مسلم، رقم (٢٧٤٢).
(٣) لا نريم: لا نبرح المكان.
(٤) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٤٧٤).
(٥) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٤٧٤).

﴿يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٢] .

إن الذي حدث في أُحد عبرة عظيمة للدعاة وتعليم لهم بأن حب الدنيا قد يتسلل إلى قلوب أهل الإيمان ويخفى عليهم، فيؤثرون الدنيا ومتاعها على الآخرة ومتطلبات الفوز بنعيمها، ويعصون أوامر الشرع الصريحة كما عصى الرماة أوامر الرسول ﷺ الصريحة، بتأويل ساقط يرفعه هوى النفس وحب الدنيا، فيخالفون الشرع وينسون المحكم من أوامره، كل هذا يحدث ويقع من المؤمن وهو غافل عن دوافعه الخفية، وعلى رأسها حب الدنيا، وإيثارها على الآخرة ومتطلبات الإيمان، وهذا يستدعي من الدعاة التفتيش الدائم الدقيق في خبايا نفوسهم واقتلاع حب الدنيا منها، حتى لا تحول بينهم وبين أوامر الشرع، ولا توقعهم في مخالفته بتأويلات ملفوفة بهوى النفس وتلفتها إلى الدنيا ومتاعها [١].

سابعاً: التعلق والارتباط بالدين:

قال ابن كثير: لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أحد، وقُتل من قُتل منهم، نادى الشيطان، ألا إن محمداً قد قتل، ورجع ابن قميئة إلى المشركين فقال لهم: قتلت محمداً، وإنما كان قد ضرب رسول الله ﷺ فشجّه في رأسه، فوقع ذلك في قلوب كثير من الناس واعتقدوا أن رسول الله ﷺ قد قتل، وجوزوا عليه ذلك، كما قد قصّ الله عن كثير من الأنبياء عليهم السلام، فحصل ضعف ووهن وتأخر عن القتال، فأنزل الله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٤٤] ، أي له أسوة بهم في الرسالة وفي جواز القتل عليه [٢].

وقد جاء في تفسير الآية السابقة: إن الرسل ليست باقية في أقوامها أبداً، فكل نفس ذائقة الموت، ومهمة الرسول تبليغ ما أرسل به وقد فعل، وليس من لوازم رسالته البقاء دائماً مع قومه، فلا خلود لأحد في هذه الدنيا، ثم قال تعالى منكراً على من حصل له ضعف لموت النبي ﷺ أو قتله: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عِمرَان: ١٤٤] أي رجعتم القهقرى وقعدتم عن الجهاد، والانقلاب على الأعقاب يعني الإدبار عما كان رسول الله ﷺ يقوم به من أمر الجهاد ومتطلباته، ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٤٤] الذين لم ينقلبوا أو ظلوا ثابتين على دينهم متبعين رسوله حيا أو ميتاً [٣].

---

(١) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ١٩٧).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم (١/ ٤٤١).

(٣) انظر: المستفاد من قصص القرآن (٢/ ٢٠٠).

لقد كان من أسباب البلاء والمصائب التي حدثت للمسلمين يوم أحد أنهم ربطوا إيمانهم وعقيدتهم ودعوتهم إلى الله لإعلاء كلمته بشخص رسول الله، فهذا الربط بين عقيدة الإيمان بالله رباً معبوداً وحده وبين بقاء شخص النبي ﷺ خالد فيهم خالطه الحب المغلوب بالعاطفة، الربط بين الرسالة الخالدة وبين الرسول ﷺ البشر الذي يلحقه الموت كان من أسباب ما نال الصحابة ﷺ من الفوضى والدهشة والاستغراب، ومتابعة الرسول ﷺ أساس وجوب التأسي به في الصبر على المكاره، والعمل الدائب على نشر الرسالة، وتبليغ الدعوة ونصرة الحق، وهذا التأسي هو الجانب الأغر من جوانب منهج رسالة الإسلام، لأنه الدعامة الأولى في بناء مسيرة الدعوة لإعلاء كلمة الله ونشرها في آفاق الأرض وعدم ربط بقاء الدين واستمرار الجهاد في سبيله ببقاء شخص النبي ﷺ في هذه الدنيا [(١)].

قال ابن القيم: إن غزوة أحد كانت مقدمة وإرهاصاً بين يدي موت رسول الله ﷺ فثبتهم، ووبخهم على انقلابهم على أعقابهم إن مات رسول الله ﷺ، أو قُتل، بل الواجب له عليهم أن يثبتوا على دينه وتوحيده ويموتوا عليه، أو يُقتلوا، فإنهم إنما يعبدون رب محمد، وهو لا يموت، فلو مات محمد أو قُتل لا ينبغي لهم أن يصرفهم ذلك عن دينه، وما جاء به فكل نفس ذائقة الموت، وما نُعت محمد ﷺ ليخلد، لا هو ولا هم، بل ليموتوا على الإسلام والتوحيد، فإن الموت لا بدّ منه، سواء مات رسول الله ﷺ أو بقي، لهذا وبخهم على رجوع من رجع منهم عن دينه لما صرخ الشيطان: إن محمداً قد قتل، فقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٤٤] ، والشاكرون هم الذين عرفوا قدر النعمة، فثبتوا عليها حتى ماتوا أو قتلوا فظهر أثر هذا العتاب، وحكم هذا الخطاب يوم مات رسول الله ﷺ، وارتد من ارتد على عقبيه وثبت الشاكرون على دينهم، فنصرهم الله، وأعزهم وظفرهم بأعدائهم وجعل العاقبة لهم [(٢)].

قال القرطبي: (فهذه الآية من تتمة العتاب مع المنهزمين، أي لم يكن لهم الانهزام وإن قتل محمد، والنبوة لا تدرأ الموت، والأديان لا تزول بموت الأنبياء) [(٣)]، وكلامه رحمه الله نفيس جداً، فالذين ظنوا من قبل أن الإسلام قد انتهى بموت النبي ﷺ ، والذين يظنون أن ظهور الإسلام ودعوته متوقف على شخص بعينه، فهؤلاء وأولئك قد أخطأوا ولم يقدروا هذا الدين قدره ولم يوفوه حقه، لأن ظهور هذا الدين وهيمنته على كل الأديان، هو قدر الله ﷻ وسنته، ولن تجد لسنّة الله تبديلاً، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبَة: ٣٣] .

---

(١) انظر: محمد رسول الله، صادق عرجون (٣/ ٦١٦).

(٢) انظر: زاد المعاد (٣/ ٢٢٤).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٤/ ٢٢٢).

فسبب ظهور هذا الدين أنه حق وأنه هدى [١].

في غزوة أحد نزل التشريع الإلهي بالعتاب على ما حدث منهم أثناء أحداث غزوة أحد، وعند موت الرسول ﷺ جاء التطبيق حيث (لما توفي رسول الله ﷺ أقبل أبو بكر الصديق رضي الله عنه على فرس من مسكنه بالسُنْح، حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة، رضي الله عنها، فتيمم [٢] رسول الله ﷺ وهو مُغَشًّى بثوب حِبرَةٍ [٣]، فكشف عن وجهه ﷺ ثم أكب عليه، فقبّله وبكى، ثم قال: بأبي أنت وأمي، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كُتبت عليك فقد مُتها) [٤].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (إن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر رضي الله عنه فقال أبو بكر رضي الله عنه: أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت. قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] وقال: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها. فأخبرني سعيد بن المسيب أن عمر رضي الله عنه قال: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر رضي الله عنه تلاها فَعَقِرْت [٥]، حتى ما تُقِلُّني رِجْلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبي ﷺ قد مات [٦].

ثامناً: معاملة النبي ﷺ للرماة الذين أخطأوا والمنافقين الذين انخذلوا:

١ ـ الرماة:

إن الرماة الذين أخطأوا الاجتهاد في غزوة أحد لم يخرجهم الرسول ﷺ خارج الصف، ولم يقل لهم، إنكم لا تصلحون لشيء من هذا الأمر، بعدما بدا منكم في التجربة من النقص والضعف، بل قَبِل ضعفهم هذا في رحمة وعفو وفي سماحة، ثم شمل سبحانه وتعالى برعايته وعفوه جميع الذين اشتركوا في هذه الغزوة رغم ما وقع من بعضهم من أخطاء جسيمة وما ترتب

(١) انظر: مرض النبي ووفاته وأثر ذلك على الأمة، خالد أبو صالح، ص ٢٠ نقلاً عن غزوة أحد دراسة دعوية، (ص ١٩١).
(٢) تيمم: قصد.
(٣) الحبرة: نوع من برود اليمن مخططة غالية الثمن.
(٤) البخاري: كتاب المغازي، باب «مرض النبي ﷺ ووفاته» رقم (٤٤٥٤).
(٥) عقرت: دهشت وتحيرت، وسقطت.
(٦) انظر: البخاري، كتاب المغازي، رقم (٤٤٥٤).

عليه من خسائر فادحة فعفا سبحانه وتعالى عنهم عفواً غسل به خطاياهم ومحا به آثار تلك الخطايا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٢] . وهناك أمر مهم يتصل بهذا العفو قد يترك أثراً في نفوسهم يعوقها بعض الشيء، ذلك هو موقف رسول الله ﷺ مما حدث منهم، أنهم يشعرون أن الرسول ﷺ هو وحده الذي تحمّل نتيجة تلك الأخطاء فلا بدّ أن ينالوا منه عفواً تطيب به نفوسهم، وتتم به نعمة الله عليهم، لهذا أمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ بأن يعفو عنهم وحثّه على الاستغفار لهم، كما أمره أن يأخذ رأيهم والاستماع إلى مشورتهم [١]، ولا يجعل ما حدث صارفاً عن الاستفادة من خبراتهم ومشورتهم. قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٥٩] .

٢ ـ انخذال ابن سلول المنافق:

كان هدف عبد الله بن سلول بانسحابه بثلاثمائة من المنافقين، أن يحدث بلبلة واضطراباً في الجيش الإسلامي، لتنهار معنوياته ويتشجع العدو، وتعلو همته، وعمله هذا ينطوي على استهانة بمستقبل الإسلام، وغدر به في أحلك الظروف، وقد حاول عبد الله بن حرام أن يمنعهم من ذلك الانخزال إلا أنهم رفضوا دعوته [٢] وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٦٦ ـ ١٦٧] .

فبالرغم من خطورة الموقف وحاجة المسلمين لهذا العدد، لقلة جيش المسلمين وكثرة جيش قريش إلا أن الرسول ﷺ ترك هؤلاء المنافقين وشأنهم، ولم يعرهم أي اهتمام، واكتفى بفضح أمرهم أمام الناس [٣]، وكان لهذا الأسلوب أثره في توبيخ وإهانة ابن سلول عندما رجع رسول الله من غزوته من حمراء الأسد، أراد ابن سلول أن يقوم كعادته لحث الناس على طاعة رسول الله ﷺ، قال الإمام الزهري: كان عبد الله بن أُبي له مقام بقومه كل جمعة لا ينكسر له شرفاً في نفسه وفي قومه وكان فيهم شريفاً إذا جلس رسول الله ﷺ يوم الجمعة وهو يخطب الناس قام فقال: أيها الناس هذا رسول الله بين أظهركم أكرمكم الله به وأعزكم به فانصروه

(١) انظر: غزوة أُحد.. دراسة دعوية، (ص ٢١٨).
(٢) المصدر نفسه، (ص ٢١٩).
(٣) المصدر نفسه، (ص ٢٢٠).

وعزروه واسمعوا له وأطيعوا، ثم يجلس حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع ورجع الناس قام يفعل ذلك كما كان يفعله فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا: اجلس أي عدو الله، والله لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت فخرج يتخطى رقاب الناس وهو يقول: والله لكأنما قلت بُجراً [١]، إن قمت أشدد أمره، فلقيه رجال من الأنصار بباب المسجد فقالوا: ويلك ما لك؟ قال: قمت أشدد أمره فوثب إليَّ رجال من أصحابه يجذبونني ويعنفونني لكأنما قلت بجراً أن قمت أشدد أمره، قالوا: ويلك ارجع يستغفر لك رسول الله. قال: والله ما أبغي أن يستغفر لي [٢].

تاسعاً: أُحد جبل يحبنا ونحبه:

عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ طَلَع له أُحدٌ، فقال: «هذا جبل يحبنا ونحبه» [٣].

وهذا يدل على دقة شعور النبي ﷺ حيث قارن بين ما كسبه المسلمون من منعة التحصن والاحتماء بذلك الجبل، وما أودعه الله تعالى فيه من قابلية لذلك، فعبّر عن ذلك بأرقى وشائج الصلة وهي المحبة، أفلا يُعتبر هذا الوجدان الحي والإحساس المرهف مثلاً على التخلق بخلق الوفاء؟

ألا إن الذي يعترف بفضل الحجارة الصماء ويُضفي عليها من الأخلاق السامية ما لا يتّصف به إلا أفاضل العقلاء، لجدير به أن يعترف بأدنى فضل يكون من بني الإنسان، وإذا كان وفاؤه ﷺ للجماد قد سمى حتى حاز أرقى العبارات وأرقها، فأخلق ببني الإنسان الأوفياء أن ينالوا منه أعظم من ذلك، فضلاً عمن تجمعه بهم الأخوة في الله تعالى [٤].

والحديث النبوي الشريف فيه كثير من المعاني منها ما ذكره الحميدي، ومنها ما قاله الأستاذ صالح الشامي حيث قال: والإنسان كثيراً ما يربط بين المصيبة وبين مكانها أو زمانها... وحتى لا تنسحب هذه العادة وتستمر بعد أن جاء الإسلام كان هذا القول الكريم بياناً للحق وابتعاداً عن الطيرة والتشاؤم، وذلك المعنى الذي يبقي الآثار السيئة في نفس الإنسان ولا شك أن المسلمين سيقفون على أحد يتذكرون تلك المعركة فحتى لا يرتبط بفكرهم ذلك المعنى السيء، بيَّن لهم أن المكان والزمان مخلوقان للّه لا علاقة لهما ولا أثر بما يحدث فيهما، وإنما الأمور بيد الله تعالى والاستشهاد في سبيل الله كرامة لصاحبه لا مصيبة، وهكذا تتساوى المفاهيم في إطارها الإيماني، وإذاً (أحدٌ) يُكرم ويُحب انطلاقاً من هذا القول الكريم، وكيف لا يكرم وقد اختاره الله ليثوي فيه حمزة وأصحابه ممن اختارهم الله في

---

(١) بُجراً: شراً.
(٢) انظر: البداية والنهاية (٤/٥٣).
(٣) انظر: صحيح البخاري، والمغازي، رقم (٤٠٨٤).
(٤) انظر: التاريخ الإسلامي (٥/١٩٨).

ذلك اليوم فجادوا بأنفسهم ابتغاء مرضاته [١].

عاشراً: الملائكة في أُحد:

قال سعد بن أبي وقاص ﷺ: لقد رأيت يوم أُحد عن يمين رسول الله ﷺ وعن يساره، رجلين عليهما ثياب بيض، يقاتلان عنه كأشد القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد - يعني جبريل وميكائيل -عليهما السلام [٢].

وهذا خاص بالدفاع عن النبي ﷺ لأن الله تكفّل بعصمته من الناس، ولم يصح أن الملائكة قاتلت في أُحد سوى هذا القتال وذلك لأن الله تعالى وعدهم أن يمدهم، وجعل وعده معلقاً على ثلاثة أمور: الصبر والتقوى وإتيان الأعداء من فورهم، ولم تتحقق هذه الأمور فلم يحصل الإمداد [٣]، قال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٤ - ١٢٥].

حادي عشر: قوانين النصر والهزيمة من سورة الأنفال وآل عمران:

تحدّثت سورة الأنفال عن غزوة بدر بشيء من التفصيل، وتحدثت سورة آل عمران عن غزوة أُحد، لكي تتعلم الأمة كثيراً من المفاهيم، تتعلق بمفهوم القضاء والقدر، ومفهوم الحياة والموت، ومفهوم النصر والهزيمة، ومفهوم الربح والخسارة، ومفهوم الإيمان والنفاق، ومفهوم المحنة والمنحة، . . . ومن المفاهيم التي تعلمها الصحابة ﷺ من خلال أحداث بدر وأحد وسورتي الأنفال وآل عمران، قوانين النصر والهزيمة، وهذه القوانين قد بيّنتها الآيات الكريمة ويمكن تلخيصها في النقاط التالية:

١ - النصر ابتداء وانتهاء، بيد الله ﷻ، وليس ملكاً لأحد من الخلق، يهبه الله لمن يشاء ويصرفه عمن يشاء، مثله مثل الرزق، والأجل والعمل: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠].

٢ - وحين يقدّر الله تعالى النصر، فلن تستطيع قوى الأرض كلها الحيلولة دونه، وحين يقدر الهزيمة فلن تستطيع قوى الأرض أن تحول بينه وبين الأمة، قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٦٠].

٣ - ولكن هذا النصر له نواميس ثابتة عند الله ﷻ، نحن بحاجة إلى فقهها، فلا بدّ أن تكون

---

(١) انظر: معين السيرة النبوية، (ص ٤٢٧).

(٢) مسلم: كتاب الفضائل، باب «في قتال جبريل وميكائيل» (٤/ ١٨٠٢).

(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٣٩١).

الراية خالصة للّه سبحانه عند الذين يمثلون جنده، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمَّد: ٧] ونصر الله في الاستجابة له، والاستقامة على منهجه والجهاد في سبيله.

٤ - ووحدة الصف ووحدة الكلمة أساس في النصر، وتفريق الكلمة والاختلاف في الرأي دمار وهزيمة، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

٥ - وطاعة أمر الله تعالى ورسوله وعدم الخروج عليها أساس في النصر، أما المعصية فتقود إلى الهزيمة، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

٦ - وحب الدنيا والتهافت عليها يفقد الأمة عون الله ونصره، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ....﴾ آل عِمرَان: ١٥٢].

٧ - ونقص العدد والعدة، ليس هو سبب الهزيمة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [آل عِمرَان: ١٢٣].

٨ - ولكن لا بدّ من الإعداد المادي والمعنوي لمواجهة العدو [١] قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمۡۖ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

٩ - والثبات عند المواجهة، والصبر عند اللقاء من العوامل الرئيسية في النصر، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ [الأنفال: ١٥].

١٠ - ولا شيء يعين على الثبات والصبر عند اللقاء، مثل ذكر الله الكثير، باتجاه القلب إلى الله وحده منزل النصر، وطلب العون منه، والتوكل عليه، وعدم الاعتماد على العدد أو العدة أو الذات، والتبرؤ من الحول والقوة، هو عامل أساسي من عوامل النصر [٢]. قال

(١) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان، (ص ٤٦١، ٤٦٢).
(٢) انظر: فقه السيرة النبوية للغضبان، (ص ٤٦٣).

تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال: ٤٥].

ثاني عشر: فضل الشهداء وما أعده الله لهم من نعيم مقيم:

قال رسول الله ﷺ: لما أصيب إخوانكم بأُحد، جعل الله أرواحهم في أجواف طيرٍ خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب، فقال ﷻ: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله ﷻ على رسوله ﷺ هذه الآيات [1] قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧١].

وقد جاء في تفسير الآيات السابقة ما رواه الواحدي عن سعيد بن جبير أنه قال: لما أصيب حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير يوم أُحد، ورأوا ما رُزقوا من الخير، قالوا: ليت إخواننا يعلمون ما أصابنا من الخير، كي يزدادوا في الجهاد رغبة فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ إلى قوله ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [2].

وروى مسلم بسنده عن مسروق، قال: سألنا عبد الله (وهو ابن مسعود) عن هذه الآية ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال: (أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم إطّلاعة، فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي! ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا). [3]

ثالث عشر: الهجوم الإعلامي على المشركين:

كان الإعلام في العهد النبوي يقوم على الشعر، وكان شعراء المشركين في بدر في موقف الدفاع والرثاء، وفي أُحد حاول شعراء قريش أن يضخموا هذا النصر، فجعلوا من الحبة قبة، وأمام هذه الكبرياء المزيفة انبرى حسان بن ثابت وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة للرد على حملات المشركين الإعلامية التي قادها شعراءهم كهبيرة بن أبي وهب، وعبد الله بن الزبعري

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٤/ ١٧٠).

(٢) انظر: أسباب النزول للواحدي، (ص ١٢٥)، تفسير الطبري (٤/ ٢٦٩).

(٣) مسلم كتاب الإمارة، باب «أرواح الشهداء في الجنة» (٣/ ١٨٨٧).

وضرار بن الخطاب وعمرو بن العاص [١].

وكانت قصائد حسان كالقنابل على المشركين، وقد أشاد بشجاعة المسلمين، حيث استطاعوا أن يقتلوا حملة المشركين، ويوبخ المشركين ويصفهم بالجبن، حينما لم يستطيعوا حماية لوائهم حتى كان في النهاية بيد امرأة منهم، وولّى أشرافهم وتركوه، وفي هذا الهجاء تذكير للمشركين بمواقف الذل والجبن التي تعرضوا لها في بداية المعركة حتى لا يغتروا بما حصل في نهايتها من إصابة المسلمين.

ولقد أصاب حسان من المشركين مقتلاً حينما عيرهم بالتخلي عن اللواء، وإقدام امرأة منهم على حمله، وهذا يتضمن وصفهم بالجبن الشديد حيث أقدمت امرأة على ما نكلوا عنه [٢].

ومما قاله في شأن عمرة بنت علقمة الحارثية ورفعها اللواء:

إذا عَضَلٌ سِيقَتْ إلينا كأنها ... جدَاية شِركٍ مُعلماتِ الحواجبِ [٣]
أقَمْنا لهم طَعناً مُبِيراً منكّلاً ... وحُزناهم بالضرب من كل جانب [٤]
فلولا لواء الحارثيَّة أصبحوا ... يُباعون في الأسواق بيع الجلائب [٥]

وعندما أخذ اللواء من الحارثية غلام حبشي لبني طلحة، كان لواء المشركين قد أخذه صؤاب من الحارثية، وقاتل به قتالاً عنيفاً قتل على أثره، فرمى حسان بن ثابت أبياته في هذا الموضع فقال:

فَخَرتُم باللِّواء وشرُّ فخرٍ ... لواءٌ حين رُدَّ إلى صُؤابِ
جعلتم فخرَكم فيه بعبْدٍ ... وألأم من يطا عَفَر الترابِ
ظننتم، والسفيه له ظنون ... وما إن ذاك من أمر الصَّواب [٦]

ومما قاله كعب بن مالك ﷺ في الرد على بعض شعراء قريش قال:

أبلغ قريشاً وخير القول أصدقُه ... والصدقُ عند ذَوِي الألباب مقبول [٧]
أن قد قَتَلنا بقتلانا سَراتَكم ... أهل اللِّواءِ فَفِيما يكثر القيل
ويومَ بدرٍ لقيناكم لنا مددٌ ... فيه مع النَّصر ميكالٌ وجبريل
إنْ تقتُلُونا فدين الحقِ فِطرتُنا ... والقَتل في الحق عند الله تفضيل

(١) انظر: معين السيرة، (ص ٢٥٢، ٢٥٣).
(٢) انظر: التاريخ الإسلامي (٥/ ٢١).
(٣) عضل: اسم قبيلة بن خزيمة، الجداية: الصغير من أولاد الظباء.
(٤) مبيراً: مهلكاً، ومنكلاً: قامعاً لهم ولغيرهم.
(٥) الجلائب: ما يجلب إلى الأسواق ليباع فيها.
(٦) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/ ٨٧).
(٧) الألباب: العقول.

وإن تَـرَوا أمـرنَـا فـي رأيـكـم سَـفَـهـاً فرأيُ من خالف الإسلام تضليل [١]

ومن أعجب ما قرأت في المعركة الإعلامية بين المسلمين والمشركين محاولة ضرار بن الخطاب قبل إسلامه أن يفتخر ببدر على اعتبار النصر كان لرسول الله والمهاجرين، وفي ذلك قوله:

فـإن تـظـفـروا فـي يـوم بـدر فـإنـمـا بـأحـمـد أمـسـى جـدُّكـم وهـو ظـاهـر
وبـالـنـفـر الأخـيـار هـم أولـيـاؤه يحامون في اللأواء والموت حاضر
يـعـد أبـو بـكـر وحـمـزة فـيـهـم وبُـدْ عـن عـلـيّ وسْـط مـن أنـت ذاكـر
ويـدعـى أبـو حـفـص وعـثـمـان مـنـهـم وسعد إذا ما كان في الحرب حاضر
أولـئـك لا مـن نـتَّـجـت مـن ديـارهـا بنو الأوس والنجار حين تفاخر [٢]

وهكذا حوّلها إلى لغة قبلية تقوم على مفاهيم جاهلية، ولقد أجابه كعب رضي الله عنه:

وفـيـنـا رسـول الله والأوس حـولـه لـه مـعـقـل مـنـهـم عـزيـز وناصـر
وجـمـع بـنـي الـنـجـار تـحـت لـوائـه يـمـسـون فـي الـمـأذى والـنـقـع ثـائـر

إلى أن قال:

وكـان رسـول الله قـد قـال أقـبـلـوا فـولّـوا وقـالـوا: إنـمـا أنـت سـاحـر
لأمـر أراد الله أن يـهـلـكـوا بـه ولـيـس لأمـر حـمَّـه الـنـار زاجـر

كما أجابه بقوله:

وبـيـوم بـدر إذ نـرد وجـوهـهـم جـبـريـل تـحـت لـوائـنـا ومـحـمـد

وهو أفخر بيت قالته العرب كما قال صاحب العقد الفريد [٢].

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام ٣/ ١٦٤.
(٢) انظر: من معين السيرة، ص ٢٥٢.